

الفصل العاشر

تاريخ الفلسفة والعلم حتى وفاة سقراط

بينما كان الشعراء الغنائيون وكتاب المآسي والفنانون يشاركون الشعب في أحاسيسه ويحاولون أن يعبروا عنها ويوجهوها ، كان ثمة فئة أخرى من الناس يسمون الفسيولوجيين (دارسي الطبيعة) أو الفلاسفة (محبي الحكمة) ، يعملون إلى اعتزال الجمهور لكي ينجوا أنفسهم ويكونوا أرواحهم بأيديهم . وكان في وسع الفريق الأول أن ينعم بالمهرجانات والأعياد اليونانية ويشارك الشعب في إقباله على الأساطير والتكهنات بشيء من الحرية ، ولم يكن يتسنى للفلاسفة مثل ذلك الإقبال ، لأن التأمل كان يستحوذ على أفكارهم . فكانوا يحاولون جهدهم أن يفهموا طبيعة الأشياء والبشر والآلهة ، ولم ينأوا عن مشاركة الشعب في خرافاته وأوهامه وحسب ، بل كان تحررهم الفكري ذاته بمثابة تحدٍ لهذه الآراء . تلك كانت حالهم قديماً ولا تزال حتى اليوم .

كان الإنتاج الشعري والفني يلاقي رواجاً وإطراء عامين ، بحيث كان الشعراء والفنانون المبرزون يدخلون في عداد الأبطال الشعبيين . أما إنتاج الفلاسفة فكان من التعاليم الخفية التي كثيراً ما أثارت الشبهات والحسد . وعضواً عن التكريظ والتقدیس ، كثيراً ما عد الفلاسفة بين أعداء الشعب وتعرضوا لنقمتهم واضطهادهم .

ولما أخذت معرفة الأشياء تنمو وتتلق ، راح الفلاسفة يحددون نطاق تأملاتهم ويمعنون في التفكير في الأشياء ، ونحووا هذا المنحى في تدرج ، بحيث لا يكاد يتجلى للعيان قبل سنة ٤٥٠ . وبتى فلاسفة النصف الأول من القرن الخامس أشبه ما يكون بفلاسفة القرن السابق ، ومع هذا كانوا أبعد ما يكون عن الأنبياء^(١) وما إن تجاوز نصف هذا القرن حتى نجد بعضهم قد أصبحوا أقرب إلى ما لا يزال

يعرف « بالفلاسفة الطبيعيين » . فكبار العلماء كالأبقراتيين الأثينيين وكبار المؤرخين كهيرودوت وثوكيديديس يتمون بلاشك إلى النصف الثاني من هذا القرن. كانت أثينا حينذاك مركز الحياة العقلية ، ولكن لم يضطر الفلاسفة لأن يكونوا على مقربة منها كما صنع الفنانون . فقد كانت تتنازعهم دوافع متضاربة : فرغبتهم في العثور على جمهور لائق من المستمعين وتلامذة من ذوى الجدارة كانت تجذبهم إلى المدينة الكبرى ، بينما كان الحرص على الهدوء والعزلة يدفعهم إلى الابتعاد عنها . ثم إن أثينا لم تكن مركز الثقل الفكرى الوحيد ، بل مما زاد عظمة الحضارة الهلينية اشتداد التنافس بين المدن العديدة المنتشرة في أنحاء البلاد . وقد كان عامة الفلاسفة يشاطرون الشعراء حب الارتياح ، لذلك راحوا يطوفون في أرجاء العالم اليونانى . وبالطبع زار عامتهم أثينا مرة أو أكثر ، إلا أنهم لم يقيموا فيها فى الغالب ، لأن تقلبات الأحوال السياسية كانت كثيرة وأسس الأمن واهية ، فلا يجد المرء معها إلى الاستقرار سبيلا .

لسنا نعرف آراء الفلاسفة الأول معرفة تامة ، لأن آثارهم فقدت ولم يصلنا منها إلا شذرات ، يضاف إليها ما يرويه بعض مؤرخى العقائد^(٢) ، وقد بلغتنا كلها مشوهة وعن طريق غير مباشر . ونحن لا نغثر أحياناً إلا على سلسلة من الأقوال الغامضة التى تفنن العلماء فى تأويلها كل الفنن . ومن العبث أن نحاول فى كتاب كهذا أن ننسج على منوالهم ، ولنفرض أننا أصبنا تأويلاً جديداً فكيف يمكننا التيقن من أنه يتفق مع المعنى الأصيل الذى قصد إليه المؤلف ؟ ومهما بلغ من الواجهة لابد أن يبقى موضعاً لشك . وقد يكون من الأيسر أن نحاول تأويل نبوات كهنة دلفى . أما غرضنا فأبسط من ذلك ، وهو أن نستعرض هؤلاء الفلاسفة دون أن نحاول شرح آرائهم بدقة لا تسمح بها معلوماتنا الضئيلة عنهم .

وسوف تقبصر فى هذا الفصل على اثنى عشر رجلاً ، أربعة من الأيونيين هم هيراكليطوس وأناكساغوراس ومايسوس ولوكيبيوس ، وثمانية آخرون كانوا يتمون

إلى أربع مناطق مختلفة من بلاد اليونان : بارمنيديس وزينون من أبناء اليونان الكبرى (جنوبى إيطاليا) ، وانبادوكليس وجورجياس من صقلية ، وديموكريتوس وبروتا جوراس من تراقية ، وأنتيفون وسقراط من أتیکا . (ويلاحظ أن واحداً من ستة فقط كان من أبناء القسم المحيط بأثينا أتیکا) ، ومن هؤلاء الاثنى عشر عاش ثلاثة فقط فى النصف الأول من القرن الخامس هم هيراكليتوس وبارمنيديس وزينون ، وثلاثة فى النصف الثانى ، هم مليسوس وديموكريتوس وسقراط ، بينما لمع الباقيون فى أواسط هذا القرن .

هيراكليتوس الأفسوسى :

كانت أفسوس أهم المدن الأيونية الاثنى عشرة dodecapolis الواقعة على الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى ، وأحرزت شهرة كبرى فى العصور القديمة من جراء معبدها العظيم المكرس لأرتميس (٣) . فى هذه المدينة ولد هيراكليتوس وقضى معظم حياته على ما نعرف . فقد تجول فى صباه كثيراً ولكنه عاد إلى مسقط رأسه بعد ذلك . ويروى ديوجنيس* اللائرقى Diogenes Laërtios أنه عند انتهائه من تأليف أهم كتاب له : « حول الكل » Peri tu pantos أودعه فى هيكل أرتميس . ويقال إنه جعل كتابه هذا غامضاً كل الغموض ، ولذلك دعى بهيراكليتوس المظلم ho Scoteinos . وينقسم هذا الكتاب كما يروى بعضهم إلى ثلاثة أقسام : تبحث فى الكون ، السياسة والأخلاق ، اللاهوت . وليس ذلك بمستبعد لأنه يمكن رد ال ١٣٠ شذرة التى وصلتنا منه إلى أقسام ثلاثة تنطبق على هذا التقسيم ، كما فعل بعضهم (٤) . ولكنه كان من الصعوبة ، حتى حين كان كله فى متناول الناس ، بحيث إن دارابن هيستاسپيس ملك الفرس كتب إلى هيراكليتوس ودعاه إلى بلاطه ليفسره له . وقد رد عليه ورفض الدعوة قائلاً : « أكره الظهور كرهاً عظيماً ، وليس فى وسعى الحضور إلى فارس لأنى قانع بالقليل ما دام

• مؤلف حياة الفلاسفة قبل المسيح ، وكتابه من أهم المراجع القديمة . (المترجم)

ذلك القليل يروق لى . وهاتان الرسالتان مثبتتان كاملتين فى كتاب ديوجينيس اللارتى ، وأذكرهما هنا لأنهما تعينانا على وضع هيراكليتوس فى إطاره التاريخى . حكم دارا الأول من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ؛ وإذن يكون هيراكليتوس قد ألف كتابه قبل سنة ٤٨٤ ، ويمكننا أن نرجح أنه ازدهر فى أوائل القرن الخامس .

وأمر هاتين الرسالتين معقول. فنحن نعلم أن هيراكليتوس كان يزدرى البشر ، حتى المادوك والفلاسفة . وكان يقول « إن العلم الكثير لا يعلم الفهم وإلا لكان علم هزيود وفيناغورس وأكسينوفانيس وهيكاتايوس^(٥) . » وذهب هيراكليتوس كسائر الفلاسفة الأيونيين إلى أنه ينبغى أن يكون وراء مظاهر الأشياء جوهر واحد . للكون ، وأن هذا الجوهر أو العنصر الأول هو النار . ولكن لم النار ؟ لعله استنتج ذلك مما قد يصح تسميته بمبدئه الثانى ، أى مبدأ تحول الأشياء الدائم — *Panta rhei*^(٦) . ويبدو أن تلك كانت فكرته الرئيسية : كل شىء يتحول إما إلى فوق أو إلى تحت . فالنار التى تنطلق إلى أعلى ثم تنحدر إلى أسفل وتتغير فى مظهرها كل لحظة هى رمز التحول الكلى الدائم . كذلك الشمس : المصدر الأعظم للنار الدائمة المتحولة .

أما مبدؤه الثالث فقد كان أن تضارب الأشياء الظاهر ينطوى على انسجام عميق ، لأن كل تحول إنما يجرى بحسب سنة شاملة^(٧) . فكل صفة تنطوى على نقيضها ، ووجود كل شىء يتضمن عدمه فى مكان ما . وهذه الأضداد تتحد جميعاً فى نظام الطبيعة العام . « الله هو النهار والليل ، الشتاء والصيف ، الحرب والسلم ، الشبع والجوع »^(٨) . وهذا القول يتفق مع قول آخر لهيراكليتوس ، مؤاده أن الانسجام الباطن هو الأصل ، لا التنافر والقبح الظاهران . غير أن أكثر البشر من الغفلة بحيث لا يرون الجمال الخفى الذى لا يبدو للعيان . كان هيراكليتوس رجلاً حزيناً ، لأنه أدرك نسبية الأشياء وبطلانها ، واستحالة التثبيت بشىء ما ، ما دام كل شىء يفر منا أبداً . وكذا كان يعتبر مثالا للتشاؤم ، يقابله ديموكريتوس ، مثال التفاؤل فى السير الشعبية . وبينما كان

الأول يبكي أبداً ، كان الثاني يضحك أبداً .
 والخلاصة أن هيراكليتوس كان فيلسوفاً وشاعراً من النمط الأيوني القديم ،
 لا رجل علم حتى ولا في مرتبة كسينوفانيس نفسه . ومع ذلك ابتداء كتابه « حول
 الكل » بالطبيعيات . ثم انتقل إلى المسائل السياسية . وأخيراً عالج مسائل
 لاهوتية : وهذا ترتيب لا بأس به . ويمكننا أن نختم كلامنا عنه بأحد أقواله
 السياسية : « ينبغي أن يقاتل الناس من أجل القوانين . كما يقاتلون من أجل
 جدران المدينة »^(٩) . وما أجدر ذلك « بالبارثون »* !

أناكساجوراس القلازوميني :

عندما نصل إلى أناكساجوراس ، آخر الفلاسفة الأيونيين ، نجدنا أمام
 مفكر أقرب إلى طائفة العلماء . والتباين بينه وبين هيراكليتوس مداهش جداً :
 فهذا ينطق بلسان شاعر وصوفي ، وذلك بلسان عالم طبيعي مترن . وأهم آثاره
 مقالته « في الطبيعة » Peri physicos التي وصلنا منها ١٧ شذرة . ولا موضع
 للشك في صحة هذه الشذرات التي تقع في ثلاث صفحات مطبوعة .
 ولد أناكساجوراس في أوائل القرن الخامس في قلازومينا . إحدى المدن
 الأيونية الاثنتي عشرة ، الواقعة في أواسط الساحل الغربي لآسيا الصغرى ،
 شمالي مدينة أفسوس . ولما كانت أفسوس كعبة هامة يحج إليها ، فن الراجح
 جداً أن أناكساجوراس وفد على هذه المدينة حيث التقى بهيراكليتوس . وعلى كل
 حال رحل إلى أثينا على أثر الحروب الفارسية ، وهو أول من قام بتلك الرحلة
 من الفلاسفة الأيونيين . وهذا يدل على أن أثينا أصبحت مركزاً جذاباً .
 ومن حسن طالع أناكساجوراس أن حظى بصدقة بركليسي أعظم أبناء تلك
 المدينة نفوذاً ، ويصف بلوتارك إعجاب بركليسي به وصفاً بليغاً يجدر بنا
 أن نشبهه هنا حرفياً :

« . . . أما الرجل ، الذي لازم بركليسي وأضفى عليه ذلك الوقار الرائع

(٥) البارثون أحد هياكل الأكروبول الكبرى الذي بناه بركليسي ، تخليداً لأبطال الحروب
 الفارسية .

الذى فاق جميع أساليب إغراء دعاة الفوضى ، وسما بخلقه حقاً إلى أرفع درجات السمو ، إنما هو أناكساجوراس القلازوميني ، الذى كان يدعو أهل عصره بالعقل « Nus » : « إما لإعجابهم بمدى إدراكه الفائق فى الفحص عن الطبيعة ، أو لكونه أول من قال بالعقل الخالص البسيط الذى يميز ويفصل الجواهر ذات العناصر المتشابهة فى وسط عالم من الخليط المشوش ، وعده مبدءاً لنظام الكون البديع بدلا من المصادفة أو « الضرورة » . كان بركليسي معجباً بهذا الرجل إعجاباً بالغاً ، ولما كان قد تشبع من الفلسفة العليا والتفكير الرفيع ، فقد امتاز بروح تتحلى بالوقار وبيان رفيع خلط من كل قحة سوقية طائشة ، هذا إلى طلعة هادئة لم تستسلم إلى الضحك أبداً ، وخطوة متئدة وهندام لم تكن لتشوشه أى نزوة من نزوات العاطفة إبان الخطابة ، وإيقاع فى الصوت بعيد كل البعد عن الصخب . وميزات كثيرة أخرى كانت تدهش مستمعيه كل الدهشة . ويقول بلوتارك فى تلك السيرة بعد ذلك بقليل : « وفوق هذا ، كثيراً ما كان بركليسي يتخذ من أناكساجوراس وتراً إضافياً لكى يتسنى له أسلوب خطابى مناسب لمخط حياته وهو مشاعره مناسبة الآلة الموسيقية . حتى لكأنه كان يمزج ببيانه صبغ العلم الطبيعى مزجاً حاذقاً » (١٠) .

وسنعود بعد قليل إلى عرض أفكار أناكساجوراس ، إلا أن هنا ما يدهش له المرء ، وهو إشارة بلوتارك إلى أنه كان لأناكساجوراس الفضل فى رفع شأن بركليسي ، لا العكس . فياله من تنويه عظيم بالشهرة التى أحرزها الفيلسوف الأيونى فى أثينا وبعظمة الشعب الأثينى آنذاك . ترى هل يحترم شعبنا اليوم فيلسوفاً ما ، أكثر من احترامه لسياسى مشهور ؟ ويقال أيضاً إن يوريبديس الشاعر كان تلميذاً لأناكساجوراس . ومن حقنا أن نذهب إلى أن أناكساجوراس كان أول معلم للفلسفة الطبيعية فى أثينا وسلف أفلاطون وأرسطو . وكان يرى أنه ليس فى الكون انتقال من وجود إلى العدم بل مجرد امتزاج symmisgesthai وانفصال diacrinesthai . فكان الكون منذ البدء خليطاً من بذور spermata لا تحصى أضنى عليها العقل (nus) النظام

والصورة عن طريق حركة التفاف Perichoresis ويلاحظ أن البذور هذه ليست من نوع العناصر ، لأن كلا منها مركب تركيب الكل : ولا من نوع الذرات أو الجواهر الفردة لأنه لا نهاية لتقسيم المادة عنده ، ولا حصر لعددها . والنقطتان الأساسيتان في نظريته هما أولاً : إدخال العقل ، تجاه المادة ، كقوة تحول الخليط بالتدرج من الفوضى إلى النظام . وثانياً : فكرة الإعصار الأزلي الأول الذى يتم بواسطة تنظيم المادة . وعن القول بالنوس انبثقت فكرة المقارنة بين العقل والمادة . وإن يكن من الغلو أن يدعى أناكساجورس أبا الثنائية الفلسفية . لأن « النوس » عنده ليس واضحاً كل الوضوح : فيشير إلى قوة طبيعية أو إلى قوة روحية^(١١) . أما الإعصار الأول وأثره في التنظيم التدريجى للكون فيقرب من نظريات « كانت » و « لابلاس » الفلكية ، إلا أنه لا يعدو أن يكون إلماعاً غامضاً إلى هذه النظريات . ومع ذلك يكنى الفيلسوف الأثينى الأول فخرأً أن يثير في أذهاننا مثل هذه المقارنات .

ومما يلحظ لديه توفيقه بين الوحدة الأيونية الساذجة والتعددية الفيثاغورية . فالكون في جملته وأجزائه المفرطة في الصغر من جنس واحد ، والفرق بين هذه الأجزاء في الحجم لا في التكوين^(١٢) .

ولنثبت هنا الشذرة الأولى من شذراته الفلسفية^(١٣) لتكون بمثابة مثل على أسلوبه الثرى الذى يختلف كل الاختلاف عن أسلوب هيراكليتوس الشعرى : « في البدء كانت جميع الأشياء مختلطة ، لا متناهية في العدد والصغر ، لأن اللامتناهى في الصغر كان موجوداً . ولما كانت جميع الأشياء مختلطة لم يبد واحد منها للعيان ، لصغر حجمه (لم يكن من الكبر بحيث يرى) . وكان الهواء والأثير^(١٤) (وكلاهما غير متناه) يخلان في كل شيء ، لأنهما كانا أعظم الأشياء عدداً وحجماً . »

هذا العمق وهذه الدقة في التفكير اللذان يبرزان من خلال شذرات أناكساجوراس رغم ضآلة المعطيات العلمية الأساسية التى ارتكزت عليها مدهش حقاً . كهيكل « البارثون » الذى كان يشيد في الوقت ذاته . كيف استطاع

أناكساجوراس أن يفعل ذلك ؟

إن دهشتنا لتزداد عندما ندرك أن معرفته العلمية لم تكن هزيلة وحسب ، بل كانت في الغالب خاطئة أيضاً . كانت نظرياته الطبيعية تقدمية ، في حين كانت معرفته الفلكية رجعية إذا قيست بآراء الفيثاغوريين . ولا يستحق ثناء خاصاً في تفسيره لكسوف الشمس وخسوف القمر على أساس نظرية اعتراض القمر أو الأرض أو أحد الأجرام الأخرى بينهما ، لأن هذا التفسير لم يكن جديداً ولأنه كان يتصل به عدد من الآراء البدائية ، كفكرة استواء سطح الأرض والكواكب الأخرى ، وكالزعم أن الشمس أكبر من شبه جزيرة « البيلوبونيز » ، وهلم جرا . وقد ذهب إلى أن القمر جرم مسكون كالأرض توجد فيه سهول وأخاديد ، وأن النيزك العظيم الذي هبط سنة ٤٦٧ على نهر الماعز (Aegos Potamoi) في خرسونيس من أعمال تراقية أو شبه جزيرة جاليبولي في الساحل الشمالي للدردييل ، إنما هبط من الشمس . وهذا النيزك هو أول نيزك في التاريخ نعرف زمان وقوعه (١٥).

وقد كان أناكساجوراس يعتنى عناية بالغة بالتشريح والطب . ويروى أنه درس علم تشريح الحيوانات وقام بتجارب تطبيقية عليها . وقد شرح الدماغ وعرف موضع « الجوفيات الجانبية » . وعزا نشوء الأمراض الحادة إلى تسرب الصفراء إلى الدم وإلى الأعضاء .

ثم حاول أن يربيع الدائرة ، وألف كتاباً في فن المشاهد المسرحية : أى تطبيق قوانين الظل على هندسة المناظر والستائر المسرحية ، وهكذا يكون أحد واضعي العلم الرياضي لقوانين الظل الصوري (Perosptive) . وليس هذا بمستبعد ، لأن الحاجة إلى مناظر مسرحية جيدة وبسيطة كانت ماسة ، لما كانت تنعم به الدراما من شأن في ذلك العصر . وكان من الطبيعي أن يتجه كتاب الدراما نحو رجل من رجال العلم لسد تلك الحاجة ، وكان من الطبيعي أيضاً أن يستشير يوريبديدس معلمه أناكساجوراس في الأمر .

كان علماء اليونان يعرفون الشيء الكثير عن مصر ونهرها العظيم ، الذي

كان يختلف اختلافاً تاماً عن الأنهار أو الجداول الضحلة التي ألفوها في بلادهم ،
ولذلك راحوا يعملون الفكر في أسباب فيضانه السنوي الذي كانت تدعى أرض
مصر من جرائه « هبة من النيل » (doron tu Potamu) وذهب أناكساجوراس
إلى أن هذا الفيضان ناجم عن ذوبان الثلوج على الجبال داخل ليبيا صيفاً ؛
وبعد أن يروى هيروديت هذا التفسير يطرحه جانباً . وأول من أتى بالتفسير
الصحيح أرسطو واراتوستينيس ، فقد قالوا إن الفيضان ليس ناجماً عن ذوبان
الثلوج ، بل عن الأمطار الاستوائية التي تهطل أثناء الربيع وأوائل الصيف
بالقرب من مياه النيل الأزرق والنيل الأبيض . ولم يكن تفسير أناكساجوراس
صحيحاً كل الصحة إلا أنه كان تفسيراً معقولاً ، وهو أول من ذهب إلى أن
الفيضان يبدأ في الجبال التي ينبثق منها النيل^(١٧) . وقد مضت ألوف من السنين
قبل أن يسلم الناس عامة بالتفسير الصحيح : لأن حل هذه المشكلة عثر عليه
ثم فقد مراراً عدة ، وقصة النظريات الدائرة حول فيضان النيل مثال حسن على
الصعوبات التي لاقاها الباحثون في اكتشاف الحقيقة والحفاظ عليها قبل
العصور الحديثة .

لن نبحت نظريات أناكساجوراس الفلكية ، فإن معالجة كل بند منها قد
يؤدي بنا إلى التطويل ، وليس في ذلك كبير جدوى ، لأنه وإن كان عالماً
مدهشاً في الكونيات لم يكن فلكياً حاذقاً ، بل كان إلى حد ما عالماً رياضياً
يصح تسميته بعالم نظري . وكان في هذا عالماً أصيلاً لأنه أثار مشاكل علمية
حاول أن يجد لها حلولاً عقلية . ومع أن الأثينيين أعجبوا به بادئ الأمر ،
استهجنوا أقواله مراراً عدة ، واستهجنوا نظره العامة إلى الأشياء ، وهي نظرة
رجل الفكر الذي يطرح الحرافات جانباً : ومثل هذا الموقف ضرب من الإلحاد
في نظر الرجل المتعصب^(١٨) . وهذا تعليل كاف لتوجيه تهمة الكفر إليه ، ومن
المحتمل أن يكون الغرض من ذلك الاتهام النيل من ولي نعمته بركليس الذي
فقد الكثير من شعبيته عند ابتداء حروب البيلوپونيز . فقد أدين عدد من
أصدقائه - أشهرهم فيدياس الذي حكم عليه بالسجن وقضى نحبه فيه . أما

يوريبديدس فقد برهن على بعد نظره بمغادرته أثينا حوالى سنة ٤٤٠ . قبل أن استفحل الأمر ذلك الاستفحال خلال السنوات العشر اللاحقة . واستطاع بركلييس أن ينتقد أناكساجوراس من السجن وإن لم يستطع إنقاذه من النفى .

ومهما كانت دواعى اتهام أناكساجوراس الحقيقية - صداقته لبركلييس أو ميوله الفارسية (١٩) - فقد كان الاتهام المباشر دينيا . وهكذا أدين أناكساجوراس لنزعه العقلية حوالى سنة ٤٣٢ . ومن المحقق أنه لم يكن أول ضحايا النزاع الدائم بين العلم، والتعصب ، إلا أنه أول ضحية وصلنا خبرها . وربما لا يصح أن ندعوه شهيد العلم ، فقد اقتضرت عقوبته على النفى ، ومع هذا فهو أول رجل فى التاريخ عوقب من جراء تفكيره الحر ، وميره وراء ما أوحى به عقله وضميره بدلا من عقائد الجماهير . ولسنا نعرف تفاصيل حياته فى الغربية ، ولكننا نعرف أنه استقر آخر الأمر فى لامبساكوس . إحدى مدن « ميسيا » . على الشاطئ الجنوبي للدردييل . لماذا اختار هذا المكان ؟ اللاتزواء عن العالم ؟ كلا ! بل لأنه أراد الانضمام إلى لاجئين آخرين إذ أنه حين دمر الفرس مدينة « ملطية » الحبيدة ، مهد الفلسفة الأيونية وحاملة لواء الثورة الأيونية على الفرس ، سنة ٤٩٤ ، التجأ عدد كبير من أهلها إلى لامبساكوس ، وقد حل فى تلك المدينة لاجئ آخر ، أو سمه خائناً إذا شئت ، هو ثمستوكليس . ولم يكن ذلك بالأمر الشائق ، ولكن يمكننا أن نفترض أن الملطيين أحدثوا فى « لامبساكوس » تقليداً فلسفياً هليينياً، راق لأناكساجوراس . ففضى آخر أيام حياته هناك وتوفى سنة ٤٢٨ . وليس من المرجح أن يكون وجد متسعاً من الوقت لتأسيس مدرسة فلسفية هناك ، وإن كان وجوده كفيلا بتقوية التقليد الهلينى فى تلك الجهة التى أنجبت فى القرن التالى « أناكسيمينيس » . أحد ملازمى الإسكندر الأكبر ومؤرخيه .

المدرسة الأيلية : بارمينيديس وزينون الإيليان ، مليسوس الساموسى :

لما استولى الفرس على فوكايا ، أقصى المدن الأيونية الشمالية ، استوطن

عدد من سكانها إيليا أو (فيليا) على شاطئ إيطاليا الجنوبية الغربي . ومن المحتمل أن يكون كسينوفانيس الكولوفوني - وهو أيوني آخر - قدم مكث في تلك المدينة رداً من الزمن ، وبذلك أيقظ الروح الفلسفية في أبنائها . وعلى كل حال كانت ولادة بارمينيديس الفيلسوف العظيم وأحد آباء الميتافيزيقى فيها ، ومن المحتمل أن يكون تتلمذ على كسينوفانيس في أواخر أيامه .

كان بارمينيديس مثال الميتافيزيقى الصرف ، همه الأكبر اكتشاف الوسائل التى توصل إلى الحقيقة الكامنة وراء مظاهر الأشياء ، لا هذه المظاهر عينها ، وليست هذه الوسائل مجرد المشاهدة والتجربة - كما يرى رجل العلم - بل هى المنطق الصرف . ويبدو أنه كان يتصور أن فى وسع الإنسان أن يبلغ الحقيقة المطلقة بالوسائل المنطقية وحدها ، وليس من الإنصاف أن ننحى باللوم على رجل من رجال القرن الخامس خامرته هذه الأوهام ، مادام كل ميتافيزيقى تقريباً حتى يومنا هذا يشاركه فى هذا الاعتقاد .

حاول « بارمينيديس » أن يقيم الفلسفة الأيونية الواحدة بدقة بالغة لتعارض التعددية والثنائية الفيثاغورية . وهو فى محاولته هذه أشبه ما يكون بالعالم الرياضى الذى تهمة الدقة أكثر من المتعارف والأمر الواقع . فعنده « ماهو » (to eon) أو الوجود يملأ جميع أنحاء المكان ، أما العدم فهو « المكان المحض » أى الفراغ المطلق . وهذا العدم يستحيل أن يوجد ، وإن كان يمكن تصوره والتعبير عنه (كما فعلنا نحن هنا) . وبناء على هذه المقدمة يذهب بارمينيديس إلى أن العالم ينبغى أن يكون واحداً ومحدوداً ، وبالتالي ينبغى أن يملأ المكان كله . وللتناسق (symmetry) ينبغى أن يكون كروياً . أما الفراغ فممتنع لأن جميع أجزاء الكون مملأ على السواء ، وهذا الكون أزل لا يتغير ولا يتحرك لأن التغير والحركة لا حقيقة لهما . ويلاحظ أن هذه النتائج نقيض ما انتهى إليه معاصره الأيونى هيراكليتوس . وكانت مقدمته خاطئة ، ولذا استحال عليه أن ينتهى إلى نتائج صحيحة ، وإن كان هذا لا يعنى أن نتائج هيراكليتوس صحيحة .

استأنف زينون الأيلى ، أحد تلامذة بارمينيديس ، مباحثه الميتافيزيقية

(ولاشك في أنها تمت إلى الميتافيزيقي لا إلى العلم) وأكلها تلميذ آخر هو ميليسوس الساموسي^(٢٠). ويبدو أن الفلسفة الإيلية اتخذت شكلاً نهائياً قبل انتقال بارمينيديس إلى أثينا وهو في السادسة والخمسين من عمره . ويروي « أفلاطون » أن « بارمينيديس » تحدث إلى سقراط وهو حديث السن آنذاك . ويستدل من هذا أن وفوده على أثينا كان في أواسط القرن الخامس وولادته في أوائله . ولن نناقش هنا فلسفة المدرسة الإيلية الواحدة المتعالية ، وإنما كان لابد لنا أن نشير إلى نشأتها، وأن نعرف ببارمينيديس وزينون اللذين سنعالج نظريتهما الرياضية والفلكية في الفصل التالي .

إن فلسفة بارمينيديس معروفة إلى حد ما ، لأن عدداً من أبيات قصيدته التي تلخصها وصلنا . وتقع هذه القصيدة في مطلع وقسمين : قسم يدور حول الحقيقة وآخر حول الرأي . فاستعاض عن الثنائية الفيثاغورية القديمة بثنائية منطقية جديدة : ثنائية الحقيقة والرأي . كانت أفكاره عميقة أو قل غامضة ، ولكي ننصف الرجل ينبغي أن نراجع أفكاره بالتفصيل ونفحص عنها فحصاً حريفاً دقيقاً ، وإن كان ذلك لا يضمن أن ندرکها إدراكاً واضحاً .

أما زينون فقد أكمل « برهان » بارمينيديس بعرضه للحالات التي تلزم عن افتراض أن التعدد والتغير شيان حقيقيان . ولعل أرسطو دعاه « مكتشف الجدل » من جراء استعماله الغالب لقياس الخلف (reductio ad absurdum)^{٢١} إذا سلطنا بالروايات القائلة بأن زينون ولد سنة ٤٨٨ وأنه كان ابن أربع وأربعين سنة عندما رافق أستاذه إلى أثينا ، اتضح لنا أن زيارتهما لأثينا كانت سنة ٤٤٤ . وليس هذا بمستبعد ، وإن كنت أفضل أن أقول إنهما كانا في أثينا في أواسط القرن الخامس .

أما ميليسوس فكان أميرال الأسطول الساموسي ، وأحرز بعض النجاح في مناوآته لبركليسي . وإن لم يتمكن من الحيلولة دون انهزام الجزيرة التي أنجبته

« قياس الخلف هو الذي تبين فيه المطلوب من جهة تكذيب نقيضه - ابن سينا - النجاة ،

سنة ٤٤٠. هل ذهب إيل أثينا في تلك السنة وتلمذ على بارمينيديس أم بعد ذلك بقليل؟ وهو على كل حال الذى دفع « بالواحدية المتعالية » إلى أقصى مدى ، فقد ذهب إلى أن التغيرات التى تطرأ على العالم الخارجى من خداع الحواس ، وأن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقة الوجود فى أى شكل من أشكاله المتغيرة^(٢). ويمتنع أن يكون الوجود الحقيقى متناهيًا وكروريًا كما قال بارمينيديس، بل ينبغى أن يكون لا متناهيًا وإلا أمكن وجود الخلاء خارجه . ومن الغريب حقاً أن نرى الواحدية الأيونية قد تفتقت فى جو جنوب إيطاليا الفيثاغورى عن هذا الشكل الفكرى المتطرف المتضارب .

وسوف نصادف بارمينيديس وزينون مرة أخرى فيما بعد . ولنتركهما الآن لأننا لسنا بصدد تاريخ الميتافيزيقى بل تاريخ العلم .

أنبادوكليس الأجرىجتى :

كان الفلاسفة الذين عرضنا لهم من قبل (هيراكليتوس وأناكساغوراس وبارمينيديس وزينون) - بقدر ما نعرف عنهم أو يمكننا أن نقرأ بين سطور مؤلفاتهم - غريبى الأضوار . إلا أن واحداً منهم لا يضارع فى الغرابة الفيلسوف الصقلى الذى نعرض له الآن . ولد أنبادوكليس فى « أجرىجت » الواقعة على الساحل الجنوبى لصقاية حوال سنة ٤٩٢ . ولم يكن فيلسوفاً فقط . بل كان شاعراً وعرفاً وعالماً طبيعياً وطبيباً ومصاحفاً اجتماعياً . وبكامة . كان من الحساسة بحيث استطاع بعضهم أن يعده دجالاً . وعنده بعض آخر بطلاً أسطورياً . وكان مستقط رأسه مدينة من أجمل مدن العالم القديم . دمرها القرطاجيون حوالى سنة ٤٠٦ . ولم تستعد روعتها بعد ذلك أبداً . وفى عهد أنبادوكليس كانت لا تزال مركزاً للثقافة اليونانية امتاز بالفنى والتهتك : ويتسمى أنبادوكليس إلى إحدى أسرها الكبرى . ومن الطبيعى أن تجذب الثروة ووسائل الرفاهية عدداً من الرجال المبرزين مثل بندار وسيسحونديس ، وباخيديس وأكسينوفانيس وبارمينيديس فى الغالب . وعندما أقصى الفيثاغورىون عن « أقرطونا » لجأ بعضهم إلى « أجرىجت » ، حيث كان منظر البحر من التلال رائعاً جداً ، والسهول المحيطة بالمدينة تحتوى

على مناجم الكبريت والملح والمنابع الحارة والأعاجيب الأخرى التي كانت كفيلة بإثارة فضول العقول المتعطشة للمعرفة . وليس لدينا أي دليل على أن أنبادوكليس تجول في مصر والشرق - كما يروى بعضهم - ولكنه تجول في العالم اليوناني . من جهة ، ووفد على مسقط رأسه . من جهة أخرى . وكان لابد له أن ينغمس في تلك الحركة الفكرية - الفلسفية والدينية والعلمية - التي كانت تغمر جميع الأصقاع الناطقة باليونانية .

وتشتمل مؤلفاته على أغان تطهيرية (Catharmoi) ، وثلاثة كتب عن الطبيعة (Peri physeos) ، وقصيدة طبية (Iatricos) . وقد وصلنا ٤٥٠ بيتاً من جميع آثاره . ومع أن هذا جزء ضئيل من المجموع . فإنه كاف لتكوين فكرة دقيقة عن أسلوبه وآرائه .

ويذهب إلى أن العناصر أو الأركان (rhizomata) أربعة : النار والماء والماء والتراب ، وأن القوى المحركة اثنتان : قوة تجذب نحو المركز وهي الحب (philotes) ، وقوة تدفع عنه هي الغلبة (neicos) . وجميع الموجودات تتركب من هذه العناصر التي لا تتغير ولا تنعدم . والتي تتألف وتتحد بفعل الحب وتتفرق وتتفكك بفعل الغلبة . كانت نظرية العناصر الأربعة توفيقاً غريباً بين الواحدة الأيونية من جهة والتعددية الصرفة من جهة أخرى (٢٢) .

وقد يتساءل : لم أربعة عناصر ؟ يظهر أن هذه القضية لم يعبا بها أحد . بل إن أفلاطون وأرسطو أضافا عنصراً خامساً . ورغم كون هذا العدد اعتبارياً محضاً ، فإنه كان لهذه النظرية تاريخ مجيد . وقد سيطرت على الفكر الغربي حتى القرن الثامن عشر تقريباً (٢٣) .

عمرت هذه النظريات الكونية طوال هذه العصور . لأنه كان من المستحيل البرهنة على صحتها أو على بطلانها قبل ولادة علم الكيمياء الحديثة . أما النظريات الفلكية عامة فكانت أقرب إلى المعتقد . وكانت نظريات أنبادوكليس خاصة من النوع الساذج : فقد ذهب إلى أن السماء سطح مصنوع من البلور ، إهليلجي الشكل ، شدت إليه النجوم الثوابت وحدها بينما خليت الكواكب وشأنها . ومع

ذلك استطاع أن يقوم بملاحظات وتجارب طبيعية مثمرة ، وثمة تجربة واحدة تنسب إليه كافية في أن نسلم له بمنزلة رفيعة دائمة في تاريخ العلم ، وهي تجربة الكلبسيديرا (Clepsydra) * التي برهن من خلالها على أن الهواء جسم . ولعله لجأ إليها من جراء المناقشات حول وجود الخلاء أو استحالته . كانت الكلبسيديرا العادية عبارة عن وعاء معلق في قعره ثقب واحد أو عدة ثقوب ، وفي أعلاه ثقب آخر . فإذا أغلق الثقب الأعلى بالاصبع وغطست الكلبسيديرا في الماء لم تمتلئ ، ولكن عندما ترتفع الاصبع يندفع إليها الماء - وثمة عدد من التجارب البسيطة الأخرى التي تؤدي إلى هذه النتيجة نفسها . مثلاً : إذا حاولنا أن ندفع بإناء فارغ ذى فوهة واسعة في الماء فإن فقائيع من الهواء تأخذ في الخروج من سطح الماء . وهذه الفقائيع التي يمكن رؤيتها وسماعها تمثل جسماً مادياً . إن الإشارة إلى استعمال أنبادوكليس للكلبسيديرا هو أول ذكر يرد لها في الأدب اليوناني ، ولا بد أن يكون اليونان استخدموها في شكل من الأشكال ، لأنها كانت معروفة عند المصريين في عهد السلالة الثامنة عشرة وعند البابليين القدماء أيضاً . أما نظرية الكلبسيديرا عند اليونان فتأخرة العهد ، ولا تقع لها على ذكر قبل زمن كليوميديس (١ . ق . م .) (٢٤).

وقد سجل أنبادوكليس عدداً من الملاحظات حول الرؤية والضوء ، ليجيب على سؤال : كيف نرى شيئاً ما ؟ ويبدو من رواية أيتيوس أنه توصل إلى حل وسط للمشكلة : وذلك أنه يصدر عن الأجسام المضيئة إشعاعات (aporroai) تصادف الأشعة الخارجة من العين ، وفي هذا ما يشير إلى أن مفكرين يونانيين آخرين حاولوا حل هذا اللغز . فزعم فيثاغورس وأتباعه أن الرؤية تنشأ عن أجزاء تنبعث عن الجسم ، وزعم آخرون أن العين نفسها ترسل الأشعة الحاسة . وهذه الأوهام تبدو سخيفة للقارئ المعاصر ، ولكن ينبغي أن يذكر أنها تمثل خطوة جريئة ، إذا قيست بموقف القدماء الذين كانوا يعتبرون الرؤية

* معناها الساعة المائية ، وهي آلة في قعرها ثقب صغير ينقط منه الماء ، وتستعمل للدلالة على الوقت - (المترجم) .

من الأشياء المسلم بها دون أن يحاولوا تفسيرها مطلقاً ، ولم يخطر لهم على بال أن هناك ما يدعو إلى التفسير (٢٥) .

وكذلك كانت تقديرات أنبادوكليس لسرعة الضوء مغامرة وتخميناً ، وإن كانت أكثر توفيقاً . فقد أثبتت صحتها مشاهدات قام بها الفلكي الدانمركي « رومر » بعد واحد وعشرين قرناً (سنة ١٦٧٦) (٢٦) ، وتجارب أخرى لم يتمها العلماء إلا خلال القرن الماضي . ذهب أنبادوكليس إلى أن للنور سرعة محدودة ، ولم يكن هذا القول بالطبع نتيجة للملاحظة ، بل للتأمل النظرى البحث . ويشهد أرسطو على ذلك ، ويرويه في موضعين (٢٧) ، ومن المفيد أن نثبت هنا أول هاتين الروايتين وأطولهما :

« يقول أنبادوكليس إن نور الشمس يخرق الفضاء المعترض (بين الشمس والأرض) قبل أن يبلغ العين أو الأرض ، ويبدو أنه كذلك ، لأن كل ما يتحرك (في المكان) إنما ينتقل من موضع إلى آخر ، وهكذا اقتضى أن يكون ثمة فترة زمنية مقابلة يتحرك فيها الشيء من مكان إلى آخر . وكل وقت معين منقسم إلى أجزاء ، لذلك ينبغي أن نفترض فترة لم يكن شعاع الشمس قد رؤى خلالها بعد ، بل كان لا يزال منطلقاً في الفضاء المتوسط » .

ويعزى إلى أنبادوكليس عدد من « الاكتشافات » في علمي التشريح ووظائف الأعضاء . فقد اكتشف صهاخ الأذن ، وذهب إلى أن التنفس لا يكون بحركة القلب فقط ، بل بواسطة الجلد كله . ودل على أهمية الأوردة الدموية ، وأن الدم حامل الحرارة الغريزية ، وأنه يندفع من القلب ثم ينصب فيه مرة ثانية . وليس هذا اكتشافاً لنظرية الدورة الدموية ، بل « للنظرية التوجيهية » التي بسطها جالينوس (٢ - II) - والتي بقيت شائعة مع شيء من التعديل حتى زمان هارفي (١٦٢٨) وبعده بقليل . ويبدو أن أنبادوكليس طبق « نظرية التوجج » هذه على العالم برمته : ففي رأيه ، هناك أمواج كونية (أو قل تنفس كوني) تشبه الأمواج (أى التنفس وضربات القلب) التي نجدتها في الجسم البشرى . وهذا القول يتفق مع فكرة التعاقب بين القوتين الكونيتين : الحب

والبعض - وهي فكرة أحرزت شهرة عظيمة طيلة قرون ، وعادت إلى الظهور مراراً في آثار عدد من الكتاب (مثل ليوناردو دافينشي وحيته) .

أما نظرياته الطبية فقد اتسمت أيضاً بسمه التنبؤ بالغيب . فالصحة عنده تتوقف على التوازن بين عناصر الجسم الأربعة ، وينجم المرض عن اختلال توازنها . وكثيراً ما حورت هذه النظرية أو بسطت (٢٨) . ولكن بقيت مسلماً بها طيلة الحقبة التي سلم فيها بنظرية العناصر الأربعة . بل لقد بزتها في التعمير . وبقيت تردّد حتى يومنا هذا .

وثمة « نواحي سبق » أخرى طالعتها بعضهم في مؤلفاته الغامضة : كالقول بوحدة الطبيعة . والتطور العضوي . والتكيف بحسب البيئة . والتذكر المتصل بتناسخ الأرواح (٢٩) .

إن هذه الصورة لأنبادوكليس . رغم تنوع ألوانها ، ليست كاملة بعد . لأنه كان يتصف أيضاً بصنفة لعلها أبرز نواحي شخصيته . وهي ناحية المصلح والمبشر . فكانت المستنقعات المحيطة بأجريجت موبوءة فجئف بعضها على حسابه الخاص . وكان يتجول من بلدة إلى أخرى يعظ تارة ، وينشد أبياته طوراً ، ويمطهر النفوس ويشفي الأجسام . وفوق هذا يقال إنه أعاد إحدى نساء أجريجت إلى الحياة . فكان من المخلصين أصحاب المعجزات . وبلغت شهرته (رغم ما كان يشوبها من شوائب) حدّاً بعيداً في حياته . ودخل في عداد الأبطال على أثر وفاته . وهكذا تجمعت الأساطير بسرعة حول اسمه كما جرى لقيثاغورس والقديسين الأول . وكانت هذه الأساطير من الغلو بحيث طمست معالم الحقيقة . وأصبحنا لا نعرف بالضبط ملايسات وفاته . وفي بعض هذه الأساطير أنه ألقى بنفسه في فوهة بركان أطنة . وفي بعضها الآخر أنه سقط فيها حين كان يراقب هيجانه . ويقال أيضاً إن البركان قذف بإحدى نعليه . (وهذا نوع من الظروف التي ترافق عادة هذه الحرافات وترى إلى تسهيل تصديقها على المستمعين السذج) . وفي رواية أخرى أنه تعرض لسخط الجمهور ، واضطر لمغادرة صقلية . ولم يكن ذلك بغريب فإن رضا الجمهور متقلب بين طرفي

الشدّة والضعف . فذهب أولاً إلى إيطاليا : والأدلة تشير إلى أنه أقام في ثوريا (لوقانيا) على أثر تأسيسها بأمد قصير (سنة ٤٤٥) : ثم هاجر إلى « الپيلوپونيز » وبلغ أولمبيا سنة ٤٤٠ ، وأنشد أحد الحفاظ « قصائده التظهيرية » أثناء إحدى الحفلات الأولمبية في تلك السنة (سنة ١ - ٨٥ للأولمبياد) . وبعد ذلك انقطع أثرد . فهل تراه وقد على أثينا ؟ ليس لدينا ما يدل على ذلك : وهو ليس قريب الاحتمال . لأن صانع معجزات يقد على أثينا من المستعمرات لم يكن ليستقبل استقبالاً حسناً فيها ، بل على العكس إن وافداً كهذا قد يتعرض لسوء عظيم . فقبله طرد أناكساجوراس منها ، برغم كونه أقل حماسة وغبابة ، وبعده بزمن غير طويل أدين سقراط بدوره . ولعل الأقرب احتمالاً أن أنبادوكليس بقي في الپيلوپونيز منتقلاً من مكان إلى آخر برفقة صديق له شاب اسمه بوسانياس ابن أنخيتوس . وإليه أهدى كتابه « في الطبيعة » (راجع مطلعته) ، ويمكننا أن نفترض أنه ألف هذا الكتاب أثناء سنوات نفيه هذه . وفي رواية طريفة كل الطرافة أنه توفي في بعض أنحاء الپيلوپونيز حوالي سنة ٤٣٥ - ٤٣٠ : حينما كان جالساً في حلقة من أصدقائه ، ومن بينهم بوسانياس . يتناولون الطعام . وما إن جن الليل حتى سمع الجلوس إلى هذا العشاء الأخير صوتاً قوياً ينادى أنبادوكليس ، وما لبثت السماء أن أضاءت وتوارى هو عن العيان (٣٠) .

وإن هذه العجالة على قصرها لتثبت أن أنبادوكليس الصقلي كان يختلف كل الاختلاف عن سائر الفلاسفة اليونان . باستثناء فيثاغورس والشعراء الأورفيين . فقد كان فيه شيء من الشرق خالطته بعض النزعات العلمية الأصيلة ، وقد تكون العناصر الشرقية تسربت إلى ذهنه المتفتح من إيران أو بابل أو مصر أو الهند ، أو تكون مظهراً أصلياً من مظاهر طبيعته المحفوفة بالأسرار . وكان رجلاً عظيماً فذاً بحيث لم يخلف وراءه مدرسة ما ، ومن هنا لم يستطع أحد من أتباعه أو تلامذته حتى ولا بوسانياس الأمين - أن يستأنف نشاطه .

الذريون : لويكيبوس وديموكريتوس (٣١)

بعد هذه الجولة في صقلية ، يمكننا أن نعود ثانية إلى بلاد اليونان ذات

الصيغة العقلية لنشأته تفسير جديد للكون : نظرية الذرات أو الجواهر الفردة . لكن العودة إلى اليونان لا تعنى الفرار من الشرق ، لأن التأثير الشرقى كان قد تغلغل فى صميم عالم البحر المتوسط الشرق طيلة أجيال . ولكي ندرك أهمية هذه النظرية الجديدة دعنا ننس كل ما نعرف ونسأل أنفسنا : من أى شىء يتركب العالم ؟ ثمه جوابان على هذا السؤال : إنه مركب من مادة واحدة أو من عدة مواد . رأينا أن الفلاسفة الأيونيين الطبيعيين أجابوا على هذا السؤال الجواب الأول ، ولكن نقاط الضعف فى هذا الجواب أخذت تبرز لنا منذ البدء ولم يكن من المستطاع تلافياها إلا بإدخال تعديلات تنطوى على تخلل ضمنى عن الواحدية monism الأصلية . فأناكسيمينيس مثلا قرر أن العنصر هو الهواء . عازيا تعدد مظاهره إلى التكاثف أو التخلخل . ومن اليسير أن نسلم بهذا التأويل لأننا نعلم أن الهواء مركب من جزئيات لا تحصى يمكن الجمع بينها من جهة ، أو تفريقها من جهة أخرى ، ولكن دون هذه الصورة يصبح ذلك مستحيلا . فكيف يستطيع المرء أن يدرك تخلخل مادة ما أو تكاثفها إذا كانت تتركب من قطعة واحدة ؟ وهكذا يمكننا أن نقول إن أناكسيمينيس كان من أصحاب التعدد وهو لا يدرى .

ومثل هذا يصدق على فيثاغورس وأتباعه الذين قالوا بوجود الخلاء . فالواحدية الحقة ، كما تبدو عند بارمينيديس والإيليين بوضوح ، تفترض فكرة الملاء . أما فلسفتنا أناكساجوراس وأنبادوكليس فقد كانتا عبارة عن تلاف للمأزق الذى كان يؤدى إليه القول بالمبدأ الواحد . وخرجا من ذلك وخرجت معهما البشرية عامة إلى الأبد . فأناكساجوراس فى قوله بوجود عقل يهيمن على الكون أدخل الثنائية ، وأنبادوكليس فى قوله بالأركان الأربعة والقوتين الاثنتين أقر تعددية كاملة . ولم يلبث أصحاب المذهب الذرى أن خطوا الخطوة التالية فوضعوا عدداً غير متناه من الجزئيات المنفصلة والمبثوثة فى الخلاء اللامتناهى .

كان القدماء (كآرسطو وثيوفراستوس مثلا) يجمعون على أن مخترع النظرية الذرية لويكيبيوس ، الذى ازدهر أواسط القرن الخامس ، وموسعها بعد ذلك بنحو

ثلاثين سنة هو ديموكريتوس . فلنتعرف أولاً إلى هذين الرجلين الغربيين .
لا نعرف إلا التزر اليسير عن الأول . فنحن نجهل حتى مسقط رأسه .
ومن قائل إنه « إيليا » ، أو « أبديريا » ، أو « ملطيا » : والأخيرة أرجح ،
ولهذا سندعوه لويكيبيوس الملطي . أما البلدان الآخرا ابديريا أو إيليا فلعاهما
ذكرا من باب الخلط بينه وبين ديموكريتوس بالنسبة للأولى ، أو لأنه بدأ بالتلمذ
على المدرسة الإلية وكان بالفعل تلميذاً لزينون بالنسبة للثانية (كما ورد في
رواية قديمة) ، ومن الممكن على كل حال أن يكون زار إيليا . ومن المرجح
جداً أنه أقام زمناً في أبديريا . ويمكننا أن نتصور نشأة المذهب الذرى كرد فعل
لنظريات بارمينيديس الغربية ، ويروى أن لويكيبيوس بسط النظرية الذرية في
كتاب دعاه - ويا للغرابة - « نظام الكون العظيم » (Magas diacosmos) .
ولكن هذا الكتاب ينسب أيضاً إلى ديموكريتوس كما ينسب إليه كتاب أصغر
يدعى « نظام العالم الصغير » . وقد فقد ما كتبه لويكيبيوس لإجملة تنسب إليه
وهي هذه : « لا يحدث شيء عبثاً (بدون علة) ؛ فكل شيء ينشأ عن سبب
ويتولد عن الضرورة » (٣٢) .

أما ديموكريتوس فعرفتنا به أوفى . (٣٣) . فلا خلاف مثلاً حول مسقط رأسه
أبديريا في تراقية ، أو حول زمانه ، فإنه يخبرنا أنه كان لا يزال شاباً إبان شيخوخة
أناكساجوراس وأنه كان أصغر منه بأربعين سنة . وهذا يتفق كل الاتفاق مع
رواية أخرى ، مفادها أنه ولد في سنة ٨٠ للأولبياد (٤٦٠ - ٤٥٧) ويتفق
أيضاً مع ما يذكره من علاقته بلوكيبيوس . ولا نحيد كثيراً عن جادة الصواب
إذا قلنا إن تاريخ ازدهارهما كان في ٤٥٠ و ٤٢٠ . وبعبارة أخرى اتخذت
نظرية الذرة شكلاً نهائياً في الربع الثالث من القرن الخامس في مدينة أبديريا .
قد يثير ذكر أبديريا استغراب القارئ ، ومع ذلك لا شك أنه أخذ يدرك
طبيعة العبقرية الجوابية في العالم اليوناني . وقد تبدو أبديريا الواقعة في الطرف
الشمالي من البحر الإيحي نائية ، إلا أنها كانت مدينة قديمة ومزدهرة ، ومن
الطريف أنها اشتهرت كقمر الأغبياء (٣٤) ، رغم أنها أنجبت ديموكريتوس

وبروتاغوراس وأناكساغوراس^(٣٥) . وإذا صح ، كما نرى ، أنها كانت مهد النظرية الذرية ، فما أقل المدن التي يمكن أن تضاهي أديرييا مجداً في العالم !! كانت أثينا مركز العالم اليوناني ولكنها لم تكن العالم اليوناني كله ، ولا الوطن الوحيد للكفاية ، بل كانت المكان الذي كانت الكفاية تجد فيه خير جزء في أواسط القرن الخامس ، وإن كان هذا الجزء لم يبذل دائماً : فقد ذهب ديموكريتوس إلى أثينا وشاهد سقراط ، ولم يجرؤ على تعريف نفسه به لشدة حياته . وهو يقول : « أثبت إلى أثينا ولم يتعرف إلى أحد » . ومن المحتمل أن الأثينيين لم يكونوا بحاجة كبرى إليه . ما دام مجيئه قد تم في أواخر القرن . وقد أُلّف عدداً كبيراً من الكتب التي لم تصلنا سوى أسماؤها . وهي مرتبة في فئات أربع^(٣٦) . وإذا استندنا إلى هذه الأسماء فإنها تؤيد الروايات المتعلقة بتربية ديموكريتوس ، فلدى وفاة أبيه قرّر أن ينفق تركته الضخمة على البحث والدراسة في الخارج . ولم يكن هذا بدعاً في اليونان . فقد رأينا الفلاسفة والشعراء يتجولون كثيراً ، وإن اكنى أكثرهم بالطواف في الأصقاع الناطقة باليونانية ، وقليل منهم جذبه الشرق بأسراره ثقة منه أنه منبع الحكمة القديمة . وقد تجول ديموكريتوس كثيراً ، وحيث ذهب كان يبحث عن العلماء ويدرس عليهم . ففضى خمس سنوات في مصر يدرس الرياضيات وبلغ « مروى » الواقعة على ضفاف النيل الأعلى . ويسر الصلح الذي عقد حين ذلك (بعد سنة ٤٤٩) بين اليونان والفرس لمن شاء من أهل اليونان أن يطوف في آسيا الصغرى^(٣٧) . واغتم ديموكريتوس هذه الفرصة لكي يزور بلاد الكلدان . ووصل فعلاً إلى بابل (فكان أول فيلسوف يوناني وصلها) ، ومنها إلى فارس ، ولعله وصل إلى الهند . والمهم أنه لم يكن متفرجاً ولا سائحاً ولا تاجراً ، بل كان فيلسوفاً يبحث عن المعرفة . ترى كم أتيج له أن يجنى من ثمارها ؟ وهل كان في وسعه أن يقرأ الكتابة الهيروغليفية والمسمارية ؟ الأرجح لا ، ولكنه كان رجلاً ذكياً يقظاً طلعة يستطيع أن يقارن بين المعلومات التي ترد إليه من مصادر مختلفة . ولا شك أنه تعلم أشياء كثيرة من معلميه المصريين والكلدانيين والفارسيين . ولكن

ما مقدار ما تعلمه ؟ وهل لنا أن نستنتج أنه حمل المذهب الذرى معه من الشرق ؟ سوف نعود إلى ذلك بعد قليل .

قبل أن نناقش هذا المذهب ينبغي أن نكمل وصفنا لشخصية ديموكريتهوس . فهو لم يكن أحد مؤسسى المذهب الذرى وحسب ، بل كان واسع المعلومات يهتم بجميع فروع الفلسفة والعلم . وسنعرض لمعارفه فى الرياضيات والفلك والطب فى فصول أخرى . ونكتفى هنا بأن نشير إلى نظرياته فى علم النفس والأخلاق . فهو أول من حاول إعطاء تفسير علمى « للحماسة » أو حال النفس البشرية التى استحوذ عليها الله والتى يمكن تسميتها بالإلهام الإلهى - وهى أيضاً حال الخلق الفنى والعبقرية والجنون^(٢٨) - ودفعه هذا إلى دراسة أصناف عدة من المشاكل النفسية وما وراء النفسية (ميتابسيكية) . أما اهتمامه بالأخلاق فيمكن الاستدلال عليه من مجموعة الحكم (gnomai) المنسوبة إليه . هل هى أقوال أصيلة ؟ من يدرى ؟ فبعضها أمثال لا يصعب التسليم بأنها من تأليفه ، حتى ولو سلمنا بأنها وصلتنا فى الشكل الذى صاغه هو ، لأنها تمثل حكمة قومه المراكمة ، لا حكمته الخاصة . وتمثل أول مجموعة من نوعها فى الأدب الأوروبى ، لذلك كانت ذات أهمية خاصة . وهاك بعض أمثلة منها :

- لا تحاول أن تعرف كل شىء إذا كنت لا تريد أن تجهل كل شىء .
- الشجاعة بداية العمل والمصادفة سيدة النهاية^(٢٩) .
- تنشأ اللذات الكبرى عن التأمل فى الأعمال الجميلة .
- البشاشة نتيجة الاعتدال فى التلذذ والاتساق فى المعيشة . والإفراط والتفريط قد يؤديان إلى تغيير حال النفس وإثارة حركات عنيفة فيها .
- من أهم الأمور فى الشدائد أن نفكر تفكيراً صحيحاً .
- من يظلم أتعمس ممن يظلم .
- خير للمرء أن يستشير قبل الفعل من أن يندم بعده .
- (ومع ذلك) التدم على الأفعال الشائنة مفتاح الخلاص فى الحياة .
- النفوس الكبيرة تحتل الإساءة بوداعة .

— من أصاب زوج بنت حسناً وجد ابناً. ومن أصاب زوج بنت سيئاً فقد ابنه.
 — من لم يكن له صديق وفيّ واحد لم يستحق أن يعيش .
 — اطلب فن السياسة فإنه أعظم الفنون جميعاً ، وتحمل ما يقضى به من مصاعب ، فإنها مصدر ما يرجوه البشر من نتائج كبرى باهرة .
 — ينبغي للمرء أن يعتبر شؤون الدولة أعظم الأشياء ويحرص على أن تكون مدبرة تديراً حسناً . وينبغي ألا ينازع إلا فيما هو حق ولا يتقلد السلطة إلا من أجل الخير العام. لأن دولة أحسن تديرها خير مآثرة. إذ هي تشمل على كل شيء : فإن سلمت سلم كل شيء معها وإن هلكت هلك كل شيء . كانت أكثر هذه الحكم الأخلاقية والسياسية والاقتصادية من المبتدلات عند الجماعة المثقفة في عهد ديموكريتهوس، ولكن بعضها أرقى من مفاهيم ذلك العصر بحيث يستشف الإنسان من خلالها نزعة سقراطية أو أفلاطونية بل مسيحية . لم يشدد ديموكريتهوس على الاعتدال فقط ، بل على روح البشاشة وذلك مما يستحق الثناء الخاص خلال تلك الأيام السود التي شهدها ولا شك . ولما كان قد توفي عن سن متأخرة . ولعله شارف المائة ، فإن حياته امتدت إلى الربع الثاني من القرن الرابع^(٤٠) .

ولنتظر الآن في المذهب الذري الذي أخذه ديموكريتهوس عن لويكيبيوس .
 ووسعه حتى أصبح تفسيراً كاملاً ومهاسكاً للكون .

وضع ديموكريتهوس ثبات الوجود النسبي محل صيرورة هيراكليتوس النامة ،
 وحقيقة الحركة محل استقرار بارمينيديس . ويتألف العالم عنده من جزئين :
 الملاء (pleres, stereon) والحلاء (cenon, manon)، وينقسم الملاء إلى أجزاء تدعى ذرات (atomon) (جزئ لا يتجزأ) . والذرات غير متناهية العدد ، أزلية بسيطة كل البساطة . تتشابه في الكيفية وتختلف في الشكل والترتيب والموقع^(٤١) .
 وكل جوهر، أي كل موضوع فرد، يتركب من هذه الذرات، والتراكيب الممكنة منها متناهية وعلى أنحاء متناهية ، والأشياء توجد ما دامت الذرات التي تتألف منها مجتمعة ، وتنعدم عندما تتفرق هذه الذرات . فالتغير الدائم في الكون

نتيجة اجتماع الذرات وافتراقها . ولما كانت الذرات في حد ذاتها غير قابلة للعدم يمكننا أن نعتبر هذه النظرية بمثابة إقرار لمبدأ بقاء المادة .

ولكن كيف تتحرك الذرات ؟ كيف تجتمع وتفترق ؟ تجتمع على وجه ما دون آخر ؟ يمكننا إثارة عدد لا يحصى من هذه الأسئلة التي لم يكن في وسع ديموكريتوس الإجابة عنها ، ولا صياغتها . ولم تتم صياغة هذه الأسئلة بدقة إلا ببطء ومشقة على يد كيماويي القرنين السابع عشر والعشرين ، ومع ذلك لم ينته عملهم بعد ولن ينتهي . المذهب الذري مذهب جبري وآلي ، ولا يحد من جبريته في نطاق الإرادة والحرية البشريتين سوى جهل الإنسان وتعدد الأسباب غير المتناهي . لم يقل ديموكريتوس بروح متميزة عن المادة ، إلا أن فئات من هذه الذرات ألطف عنده من فئات أخرى ، ولهذا وضع سلسلة من هذه الفئات تمتد من الأثقل والأكثر ترابية إلى الألف والأشد أثيرية . والنفس (أو المبدأ الحيوي: psyche) جسمانية ، وإن كانت تتألف من أخف الذرات (كالنار) ، وأسرعها حركة (وكروية الشكل لتزيد سرعتها) . ولجميع الأشياء نصيب من هذه الذرات الخفيفة (أي النفوس) ، وفي هذا ما يمكن الذريين القدماء من تفسير الإحساسات والأفكار والظواهر النفسية المختلفة . ترد كلمة Psyche في شذرات ديموكريتوس التي وصلتنا مراراً : وهي تعنى العقل أو النفس . وثمة قدر من « البسيثية » في كل مكان ، أو بعبارة أخرى : العالم كله حتى (أي متنفس) ، ولكن ليس ثمة آلهة ولا عقل « كالنوس » الذي قال به أناكساجوراس ، ولا عناية سماوية كالتى قال بها سقراط . وتفوق النفس على الجسد ، أو الفئات الأقل جسمانية من الذرات على الفئات الأكثر جسمانية ، قضية ثابتة عند ديموكريتوس بحيث لا يناقشها بل يعيد التأكيد عليها مراراً . وهكذا يهيمن على ماديته شيء من المثالية الأصيلة . وفوق ذلك قال بوجود ذرات لطيفة أشد اللطف ومنبثة في كل مكان وفي وسعها التأثير على مصيرنا ، يدعوها أيدولا eidola (ومنها لفظة idols في الإنجليزية ، ولها دلالة خاصة بمعنى : أشباح ، صور ، أطيف ، أوهام) ، وقد كانت هذه وسيلة

لبقة لتأويل ما تنطوى عليه الأحلام والرؤى والتكهن . والخفايا الأخرى من حقائق . وما يخفف الجمود الظاهر في مذهبه ما اشتمل عليه من غموض وسرودة ، فكان مذهباً شاملاً يستطيع أن يؤول أكثر الحقائق أو الوقائع أشدها مادية وأعظمها روحانية . وكما يلاحظ يبلى :

« لم يكن ديموكريتوس أحد الشكاك ولا العقليين ولا من القائلين بالظواهر (Phenomenalist) ، ولا يصدق عليه شيء من مفاهيمنا الحديثة . فلم ينكر ولم يثبت حقيقة جميع الإحساسات أو جميع الأفكار ، ولكن كَوّن لنفسه نظرية في المعرفة دقيقة تكاد تكون بادية التناقض ، وترتكز مباشرة على نظريته الذرية إلى الكون . فقومات الكون الأخيرة : أى الذرات والخلاء ، حقيقية ويمكن للعقل إدراكها . والظواهر إنما تتركب من هذه المقومات الأخيرة وتحفظ بخصائص الحجم والشكل ، وهكذا هى حقيقية ويمكن إدراكها بالحواس . ويستطيع العقل أن يستنتج من الظواهر، لأنها ، وهى وحدة مؤلفة من الخصائص الأولية ، حقيقية ، ولأن الحس ، وهو إدراك الظواهر الحقيقية المحض ، هو والفكر شيء واحد . وإذا تجاوزنا هذه الخصائص الأولية ، أى تجاوزنا حقيقة الظواهر ، كنا كمن يسند إلى الموضوع ما هو فى الواقع من خواص التجربة الذاتية المستمدة من الحواس وأن الفكرة المبنية على هذه « الاصطلاحات » لن تجدى نفعاً^(٤٢) .

ثارت حول مصدر المذهب الذرى مشادات بين عدد من العلماء ، الذين لم يجدوا فى الأصول اليونانية (كالفيثاغورية وغيرها) التى أشرنا إليها من قبل ، ما يكتفى لتفسيره . وقد نشأت مذاهب ذرية فى الهند فى مدرستى « نيايا » و « فاييسشكا » فى عهد لا يمكن تعيينه بالضبط ، وإن كنا نجزم أنه يرقى إلى ما قبل المسيح^(٤٣) . وإذا افترضنا أنه سبق قيام هذه النظريات نظريات أقدم ، أو قل أقدم جداً (براهية وبوذية وجاينية) ، فهل اطلع اليونان على هذه النظريات القديمة ؟ وهل أثرت فيهم يا ترى ؟ ليس ذلك ممتنعاً ولعل ديموكريتوس نفسه سمع بها عندما كان فى الفرس أو الهند (؟) ولكن هذه تخمينات فرضية

لم يدلل عليها . والنظرية الذرية فرض علمي لا بد أن يعثر عليه رجال من ذوى البصيرة ، العاملين على التوفيق بين وحدة الطبيعة واستقرارها النسبي وبين تحول أشكالها المستمر . كيف يمكن التوفيق بين القول بالوحدة والقول بالتعدد؟ ليس من المدهش أن تكون هذه النظرية عرضت للمفكرين الهنود وللمفكرين اليونان كل على حدة . وكان في وسع اليونان والهنود أن يتوصلوا إلى هذا الحل بأنفسهم . وما أجدرنا أن نشير إلى إحدى الروايات التي تعرض للأصل الشرقي للمذهب الذري ، فإن فيها ما يبعث على الدهشة . ينسب بوسيدونيوس (I-1 . ق . م .) هذا المذهب إلى عالم فينيقي هو « موخوس » الصيداوى ، وينسبه فيلون البيلوسى إلى عالم فينيقي آخر هو سانخونياتون البيروتي الذى ترجم فيلون هذا كتبه إلى اليونانية . وقد أثبت يوسيبوس فى تاريخه قسماً من هذه الترجمة (٤ - ١) ، ويقال إن كلا من موخوس وسانخونياتون عاش قبل حروب طروادة وأن الأخير عاش فى زمن سميراميس^(٤٦) . وإذا اعتمدنا نص يوسيبوس فإن أقوالهما بعيدة كل البعد عن مذهب لوبيكيوس وديموكريتوس الذرى . ولعل الفينيقيين الذين كانوا تراجمة وسماسرة حاذقين نقلوا نظرية هندية ما ، أو لعلهم ابتدعوا نظرية جديدة وإن كان هذا ليس من المألوف لديهم . ولما كنا نعرف اليونان والفينيقيين فلا يدهشنا قط أن يكون أولئك قد ابتدعوا النظرية الذرية . أما أن يكون هؤلاء قد فعلوا ذلك فدهش حقاً^(٤٧) . والروايات الفينيقية لا تشفى غليلاً ، لأن ديموكريتوس المتعطش للمعرفة وقع تحت تأثير عوامل شرقية مختلفة أثناء إقامته فى الشرق . إلا أن اكتشاف المذهب الذرى لا ينسب إليه بل إلى معلمه لوبيكيوس .

وعندما نحكم على هذا المذهب اليونانى ينبغى أن نحترس من خطرين : الأول هو الخلط بينه وبين النظرية العصرية التى اكتشفها « دالتون » فى أوائل القرن التاسع عشر ، والثانى إسقاطه من تاريخ العلم من جراء غموضه ، فبين الفكرة اليونانية وفكرة دالتون بون شاسع ، وهو البون بين المفهوم الفلسفى الذى لا يمكن أن يمتحن ، والفرض العلمى الذى يتطلب سلسلة من الاختبارات تاريخ العلم

والتجارب. وبرغم ذلك لا ريب أن نظرية ديموكريتوس . في الشكل الذى أعاده أبيقور إلى الحياة ووجهه لوكريتوس بقيت حافظاً فكرياً خلال العصور . وإن كان قد أصابها إهمال من جراء تأثير العلماء المسيحيين واليهود ، فإنها لم تمت قط ، وسيرة ما أصابها من تقلبات من أروع السير في تاريخ المعرفة .

السوفسطائيون : بروتا جوراس الأبدبرى وجورجياس الليونتينى وأنتيفون الرامتوسى :
لنعد الآن إلى أثينا ولننظر إلى الجو الفكرى نظرة رجل مثقف عاش في النصف الثانى من القرن الخامس يحاول أن يفهم الكون المحيط به . وإذا استثنينا الأحوال السياسية التى كانت تزداد سوءاً كل يوم فلا بد أن يقع صاحبنا في حيرة من أمر العقائد المتناقضة التى كانت تثار وتبحث حوله . أيصدق هيراكليتوس أم بارمينيديس؟ أناكساجوراس أم أنبادوكليس؟ أم يتبع أصحاب المذهب الذرى؟ أو ليس من الأسهل والأضمن له أن يشترك في الطقوس الدينية السرية وحفلات تكريم الأولياء ويقوم بواجباته كمواطن ويساهم في الإيمان بالخرافات الشعبية؟ أين الحقيقة في كل هذا؟ أمام هذا التساؤل الذى كان يزيد في خطورته عدم الاستقرار الاقتصادى والسياسى ، لم يكن من الغريب أن يلجأ الإنسان الحسن الطوية إلى التعصب أو الشك أو إلى صورة من صور اليأس الأخرى . ما جدوى ذلك كله؟ وهل ثمة حقيقة؟ وهل يستطيع الإنسان الفانى أن يدركها؟ وكان أعقد هذه الأسئلة هو إلى من تكل تربية أبنائك — إن وجدوا — في ظروف كهذه؟

كانت الحاجة إلى المعلمين ماسة جداً ، وقد تكونت طبقة منهم سداً لهذه الحاجة ، سموا بالسوفسطائيين ، وكان قبلهم طبعاً معلمون آخرون ، لأن أية مدنية لا تقوم بدونهم . وعنت كلمة سوفسطائى (sophistes) ، بحسب الاستعمال السائد حوائى آخر القرن الخامس ، معلماً للنحو والبيان والمنطق والنصاحة ، وكان محترفاً يعلم الشبيبة آداب السلوك والحكمة وسبل السعادة . وبعض هؤلاء السوفسطائية ، بل أكثرهم ، رجال أفاضل ، وفريق منهم من اللامعين نفعى ومرء ، وذلك أمر لا مفر منه . ويظهر أن عدد هذا الفريق

كان يزداد على مرور الزمن ، بحيث أخذ يلصق باسم سوفسطائي المعنى الذرى الذى احتفظ به حتى عصرنا هذا .

لا خير يرتجى من مصاحبة الأوغاد . ومع هذا من المفيد أن نتعرف على ثلاثة من سوفسطائي العصر الذهبي الشهيرين . وهم براتاجوراس وجورجياس وأنتيفون . وقد خلد الأول والثانى فى محاورتين لأفلاطون تحملان اسميهما وتعطيان صورة ناطقة جميلة عنهما^(٤٨) .

بروتاجوراس الأبدىرى :

ولد بروتاجوراس فى أبديرا . بلد ديموكرييتوس . حوالى سنة ٤٨٥ . ولما بلغ سن الثلاثين أخذ يطوف فى أرجاء اليونان وصقلية واليونان الكبرى (Magna Graecia) يخاضر ويعلم . وكان أول من دعى سوفسطائياً . واستغل أول حصاد فكرى واجتماعى . وكان نجاحه عظيماً جداً حتى لقد جمع . خلال أربعين سنة . من التعليم عشرة أضعاف ما جمعه فيدياس من المال . وتردد على أثينا مراراً عديدة - وطالت بعض زيارته هذه . وأصبح معروفاً فى تلك المدينة . ونال حظوة عند بركليس . وكانت قصة نجاحه المادى هذه مؤسفة ومشؤمة ، فقد حفزت كثيرين غيره على نهج مسلك يدر مثل ذلك المال ؛ وإن مهنة تعود بمثل ذلك النفع لمخوفة بخاطر عظيم . وقد ابتدأت هذه المهنة الجديدة بداية حسنة : ولا غرو أن تكون قد أخذت فى الانحطاط من سئ إلى أسوأ . وأن يحرز الجدال والفسفسطة سمعة شائنة . ومما سهل نجاح بروتاجوراس أن فاسفته كانت ضرباً من النسبية الهيراكليتية . وهى فلسفة كثيراً ما يقبل عليها الناس فى عصر من الضجر والتبرم الزائد بالحياة . ويقول فى أحد كتبه التى تبحث عن الحقيقة : « إن الإنسان معيار كل شئ » . فليس هناك حقيقة مطلقة إذن . ومن أقواله الأخرى الأقل احتراساً : « أما الآلهة فلست أدرى إذا كانوا موجودين أم لا . فهناك أشياء كثيرة تحول دون معرفتنا ذلك . أولاً غموض الموضوع . وثانياً قصر حياة الإنسان » . لقد كان هذا فوق ما تستطيع الديمقراطية الأثينية إساغته .

وكانت شديدة التأثير بما يمت إلى المسائل الدينية ونفذ صبرها بسبب حوادث الكفر المتكررة^(٤٩). وفي سنة ٤١١ م بروتاجوراس بالكفر فدعا المنادى بالمدينة جميع الذين اشترؤا كتبه أن يجلبوها إلى السوق لكي تحرق^(٥٠). وقد أقصى عن أثينا . أو لعله حكم عليه بالموت وتمكن من الهرب ، ومع أنه استطاع أن يخدع قضاة أثينا فإنه لم يستطع أن ينجح القدر ، فقد تحطمت السفينة التي كانت تقله إلى النجاة وهلك .

ولابد لنا أن نضيف ملاحظة أخرى : كان السوفسطائيون يعلمون حسن الأداء ويشتمل على النحو ، لذلك كان بروتاجوراس ، وهو السوفسطائي الأول ، في الوقت نفسه النحوى الأول ؛ فقد نبه إلى التأنيث والتذكير ، وميز بين زمان الأفعال وصيغها . وكان بالطبع أول معلم للمنطق العملى ، وسنعود إلى ذلك فيما بعد . ومن المفيد أن نلاحظ هنا ولادة النحو اليونانى^(٥١) .

جورجياس الليونتيى :

بينما كان أول السوفسطائيين وأشهرهم من أبناء تراقيا ، كان منافسه الأكبر جورجياس من أبناء صقلية .

ولد جورجياس فى ليونتيى (على مقربة من سرقسطة) ، حوالى سنة ٤٨٥ . ولسنا نعرف تاريخ ولادته بالضبط . وكل ما نعرف أنه كان شيخاً حينما أوفد سنة ٤٢٧ سفيراً لمسقط رأسه إلى أثينا ، ويقال إنه عاش بعد موت سقراط ومات عن مائة عام . ويقال أيضاً إنه كان تلميذاً لأنبادوكليس . وقد تجول كثيراً مثل بروتاجوراس ، وقضى عدة سنوات فى أثينا . وجمع مالا كثيراً وأنفقه بسخاء . وكان فى سفسطته من نوع بروتاجوراس ، أو أسوأ منه . وإذا استندنا إلى المقتطفات القليلة الباقية ، وجدنا أنهما معاً كانا ميالين إلى الشك وإن كان بروتاجوراس أقرب إلى الفلسفة ، فى حين كان جورجياس مثالا لسفسطائى الغالى الضعيف الذكر ، أى الرجل الذى يزعم أن ما هو محتمل خير مما هو حقيقى ، وأن فى وسعه أن يجعل الأشياء التافهة جليلة ، والعكس بالعكس ، والمنطقى

أو الخطيب الذى يهتم بالشكل أكثر من اهتمامه بالموضوع . وكانت لهجته أتيكية فصيحة . وكان مولعاً بالألفاظ الغريبة والاستعارات النادرة ، ومع ذلك فإن أفلاطون لا يقسو عليه كل القسوة فى المحاوراة المدعوة باسمه . وقد كتبها فى الوقت الذى كتب فيه « الجمهورية » ، أى حوالى ٣٩٠ - ٣٨٧ ، عندما كان يعد العدة لافتتاح الأكاديمية . أما مشاهد الرواية فترقى إلى سنة ٤٠٥ ، عندما كان سقراط فى سن الرابعة والستين وجورجياس عجوزاً فى سن الثمانين وفى ذروة شهرته .

كان جورجياس يكتب مقالات خطابية وينشد أشعاراً رياضية ويلقى خطاباً فى الأعياد فى أولبيا ودلنى مبشراً بالسلام والوحدة . ولكن من يسبغ لنفسه أن يصغى إلى امرئ عرف من الجميع بأن غرضه الأول الفصاحة والإقناع ، وأن فى وسعه أن يتكلم فى طرفى الموضوع بالفصاحة نفسها ؟ ولكى يقنع المرء الآخرين ينبغى أن يقنع هو أولاً ، ولم يكن جورجياس مقتنعاً ذلك الاقتناع . وإذا سلمنا بماضيه الجدلى فإنه لم يكن كاذباً ولكن النجاح غشى على بصيرته .

أنتيفون الرامنوسى :

يمثل السوفسطائى الثالث ، صنفاً آخر يختلف عن السابقين ، ويساعدنا على تبين أن السوفسطائيين أنواع مختلفة : ولد أنتيفون فى رامنوس على مقربة من « مراثون » فى الوقت الذى ولد فيه السوفسطائيان الآخران تقريباً ، حوالى سنة ٤٨٠ ، واحترف الخطابة (٥٢) ، وكان زعيماً لمدرسة خطابية (٥٣) أشهر تلامذتها « ثوكيديديس » . وقد وصلنا من خطبه خمس عشرة ، أعدت كلها كى يلقيا غيره أو للتمرين . ولم يلق من خطبه العديدة سوى خطاب واحد أعده للدفاع عن نفسه سنة ٤١١ : إلا أن هذا الخطاب الذى لا بد أن يكون أجمل خطبه وأبلغها قد ضاع . وكان أنتيفون إلى جانب ذلك من رجال السياسة واشترك فى حكومة الأربعمائة ، سنة ٤١١ ، وأعدم بعد سقوط تلك الحكومة . وإلى جانب خطبه ألف كتيباً صغيراً يدعى « فن تفادى الكتابة »

(Techne alypias) وهو أول كتاب من ذلك الصنف الشائع الذي يعرف « بالتعازى ». فالناس يعانون ضرراً من الأسى ، وليس بينهم من لم يذق طعم الحزن والشجن ، وهم يحتاجون جميعاً إلى العزاء : فكان طبيعياً أن يرحبوا بكتاب جيد فى التعزية . وقد كان لأنثيفون مقلدون عديدين فى جميع البلدان والعصور نكتفى بأن نذكر منهم « بوثيوس » ويوشع ليمان^(٥٤) .

كان بروتا جوراس وجورجياس وأنثيفون من خيرة السوفسطائيين ، وإن لم يكونوا ممن تطيب لهم النفس ، وهم يساعدوننا على فهم الجو الفكرى السائد فى النصف الثانى من القرن الخامس ، والمشاكل التى نشأت عن نشاط السوفسطائيين معروفة لدينا لأنها مشاكل التربية . وعندما يصبح المجتمع متحذلقاً — كما حدث للمجتمع اليونانى فى أواسط القرن الخامس — ظهرت فيه نزعة محتومة نحو استبدال نظام التربية القديم بنظام جديد يمكن معه أداء عناصر الثقافة الجديدة إلى الحيل الجديد . وهنا يبدأ النزاع بين الآباء والأبناء . ذلك النزاع الأزلئ بين الأجيال المتلاحقة ، والذى يشتد كثيراً فى فترات التقدم الثقافى الفجائئ ، ولا يوجد نوع من التربية ، مهما بلغت جودته ، يصلح لكل فرد ، ويمكن أن يقال إن خير نظم التربية قد يصلح الطلبة الجيدين ويفسد الطلبة الفاسدين . وحتى اليوم لا نزال نرى أن بعض الطلبة لا يستفيدون شيئاً من الجامعات سوى الغرور الذى يضاعف غباوتهم ، وواضح أنه لم يكن فى وسع خير السوفسطائيين أن يحول دون النزعات الشريرة لدى رجل كالقياديس . إلا أن من المحقق ، كما أثبتت التجارب المتواترة ، أن نمطاً من أنماط التربية قد يصلح للطلبة ذوى الاستعداد الحسن ، ويضر بسواهم ممن ليس لهم ذلك الاستعداد . وفى النقد اليونانى المعاصر للسوفسطائيين مثال حى لذلك فى بعض روايات أريستوفانيس . « كأصحاب المأدبة » المفقودة (Daitaleis) التى مثلت سنة ٤٢٧ ، أو « السحاب » (Nephelai) التى أخرجت فى مهرجان « ديونيسيا » الأكبر سنة ٤٢٣ . ويخيل إلى أنه ليس من العسير أن نضع ثبناً طويلاً بروايات ألفت منذ أريستوفانيس إلى اليوم للتعبير عن ترم الشيوخ بالتربية الجديدة، وبيان

ما فيها من أخطار حقيقية حتى في أروع أشكالها . وما زاد في حدة هذا النزاع في أئتنا ظروف الهزيمة في الحرب وإسراف الخطباء الشعبين والقلق الاقتصادي . ويظهر أنه كان هناك ما يستند إليه المحافظون في إنحائهم على المرابين المحدثين باللائمة . وكان الرجل العادي الحسن السيرة يخاف من نمو الشك والتهمك والتخلى التدريجي عن الطقوس القديمة واطراح العقائد العامة .

سقراط الأثيني :

كان يوربيديس وسقراط بين السوفسطائيين الذين هزى بهم «أريستوفانيس» . وقد عرفنا الأول ونحن على وشك أن نعرف الثاني : وهو رجل من أنبل الرجال في تاريخ البشرية جمعاء . وإن وصف أريستوفانيس له « بامرئ حقير »^(٥٥) فهو وصف مغرض وسخيف : فقد خلط بينه وبين السوفسطائيين المرتزقين الذين كانوا « يجعلون أوهى الحجج تبدو أفضلها » ، أو بينه وبين جماعة من المتحدلقين الذين كانوا يهتمون بالأمور السماوية (ta meteora) أو ما تحت الأرض (ta hypo tes ges) فوق اهتمامهم بواجبات الإنسان . ولم يكن سقراط من المشغولين بالسماويات^(٥٦) قط ، وإن كان سوفسطائياً في نظر الأثينيين . أى معلماً للأحداث ، ولذا أصابه نصيب من نقمتهم . وفي هذا ما يفسر سخرية أريستوفانيس وإن كان لا يبررها لأنه كان ينبغي أن يكون أعرف بحقيقة الموقف .

ولد سقراط في أئتنا سنة ٤٧٠ وكان أبوه «سوفرونيسكوس» نحائناً، وأمه «فايريت» قابلة . وكانا شخصين عاديين متوسطي الحال ، في وسعهما أن يعلماه أفضل تعليم ممكن في تلك الأيام . وقد تدرّب على مهنة أبيه . ثم أظهر ولعاً مبكراً بالفلسفة . ومن السهل أن ينشأ في أئتنا ولع كهذا . وأن يروى غليل صاحبه . فقد كانت المناقشات الفلسفية تدور دوماً : في المسرح أو السوق أو الشارع . وقد تعلم قسطاً من الحساب والهندسة وعلم الفلك . أما السياسة فكانت أكثر شيوعاً من الفلسفة ، وكان لا بد منها اللهم إلا للبيكم .

والتحق سقراط بالجندي واشترك في القتال مراراً ، ولم يساهم في الحياة العامة إلا مرتين ، أبدى فيهما شجاعة من الطراز الأول . وكان مظهره فريداً ، بسبب دمامته الثامة ، فكان أفتس الأنف غليظ الشفتين يذكركنا بفلاح روسي من الطراز القديم ، إذا اعتمدنا على التمثال اللندني (٥٧). وكان قوى البنية قادراً على تحمل التعب المضني ومكابدة المشقات وتقلبات الطقس إلى حد كان يدهش رفاقه . وزيه بسيط جداً ، يسير في الشوارع دائماً حافي القدمين ، ولا يأكل إلا القليل ، لا عن زهد، فإنه لم يدع إلى إنكار الذات ، وإنما لأنه ، وهو يعيش عيشة البساطة جداً ، كان يؤثر ذلك النمط من الحياة .

أما شكاسة طبع امرأته « اكسانتيب » ، فقد ذهبت مثلاً . وقد يتساءل : ألم تكن هذه الشكاسة مبالغاً فيها لإبراز لطفه وطول أناته لإبرازاً أتم ؟ وقد رزقت منه ثلاثة صبيان كان أكبرهم شاباً عند وفاة والده (٥٨). وكان الاثنان الآخران أصغر كثيراً ، وهذا يدل على أن سقراط تزوج متأخراً نسبياً .

ولم يترك أى مؤلف ، ومعرفتنا به مستمدة من مؤلفات اثنين من تلامذته : أفلاطون واكسينوفان . والصورتان اللتان يرسمانها تتفقان في الجوهر ، وإن اصطبغت الأولى بمثالية أفلاطون والأخرى بواقعية اكسينوفان . وفي المحاورات الأفلاطونية التي يظهر فيها سقراط ويتكلم ، يستحيل تعيين المقدار الذي ينبغي أن نعزوه إليه من خطبه ، والمقدار الذي ينبغي أن نعزوه لأفلاطون (٥٩) ، وليس في وسعنا أن نسند إلى الأول أمراً دون أن نسلبه من الثاني . ولكننا نجد في اكسينوفان أداة صالحة للمقابلة والتصحيح ، فكلما اتفق هو وأفلاطون كنا واثقين كل الثقة . وإذا استثنينا بعض التفاصيل التي لا أهمية لها ، وجدنا صورة سقراط التي وصلتنا تبدو شديدة الشبه بالأصل . وليس بين القدماء امرؤ نعرفه معرفة أوفى : فبفضل فن أفلاطون وطيبة قلب اكسينوفان نكاد نراه ونسمع كلامه .

ورغم أنه قضى حياته يعلم الناشئة ، فإنه كان يختلف عن السوفسطائية إذ لم يكن معلماً محترفاً ، ولم يفتح مدرسة أو يعقد نادياً للدرس ، ولم يلق

محاضرات، ولم يطلب مالا لقاء تعليمه . والمقارنة بين الثروة التي جمعها رجال كبروتاجوراس وجورجياس وبين فقر سقراط تنطق بذلك، وكان صاحبنا رجلا من طراز آخر، هذا إلى أنه كان يزدرى السوفسطائيين، ولم يتقاعس قط عن التشهير بشكهم وسطحتيتهم. وهذا ما يجعل تهمة أريستوفانيس بغیضة إلى حد بعيد، : فقد اختار نموذجاً للسوفسطائيين خير خصومهم . وكيف كان في وسع رجل له اطلاع أريستوفانيس أن يرتكب هذا الاتهام الجريء ؟

تعطينا الفقرة التالية من « مذكرات اكسينوفان » (Memorabilia) فكرة عامة جيدة عن شخصية سقراط وشخصية اكسينوفان نفسه :

« كان سقراط يعيش دائماً خارج بيته : فكان يذهب في الصباح الباكر إلى المنتزهات والملاعب العامة ، ويرى قبل الظهر في السوق ، ويقضى سائر النهار حيث يلتقى الناس عامة . وكان دأبه التحدث ، يصغى إليه من شاء . ولم يتحامل قط على الدين والعبادة : قولاً أو فعلاً . ولم يعرض لذلك الموضوع المحجب لدى عامة الخطباء « طبيعة الكون » - وتحاشى الخوض فيما يدعوه الأساتذة « بالكون المنظم » (Cosmos) وفي القوانين التي تخضع لها الظواهر السماوية : بل كان يقول على العكس إن الاشتغال بهذه المسائل جنون مطبق : كان يتساءل أولاً : هل يحسب هؤلاء المفكرون أن معرفتهم بالشؤون البشرية كاملة، وأنه ينبغي لهم أن يبحثوا عن ميادين جديدة لترويض عقولهم ، أو أن واجبه أن يهملوا الشؤون البشرية وينظروا في الأمور الإلهية فقط ؟ وفوق هذا كان يعجب من تعاميمهم عن إدراك أن الإنسان لا يستطيع حل هذه الألغاز ، لاسيما أن أشد المتكلمين في هذه الأمور غروراً لم يتفقوا على رأى فيما بينهم ، بل نظر بعضهم إلى بعض نظرة المجانين ، فبعض المجانين لا ينحشون خطراً ما ، في حين يخاف بعضهم الآخر مما لا يبعث على الخوف . ويقول بعضهم أو يفعل ما شاء أمام الجمهور في غير استحياء ، بينما يحجم بعضهم عن الظهور بين الناس ، وقد يحترم بعضهم هيكلًا أو مذبحاً أو أى شيء مقدس آخر ، بينما يعبد غيرهم الأخشاب والحجارة والوحوش - وهذه هي حال من يبحثون عن

« الطبيعة الكلية ». فيحسب بعضهم أن الموجود واحد ، وبعضهم الآخر إنه لا متاه في العدد . ويقول قوم إن جميع الأشياء تتحرك دائماً . وآخرون إنه لا يتحرك شيء قط ، وقوم إن الحياة ليست إلا ولادة وانحلالاً ، وآخرون إنه لا يولد شيء ولا يموت . وليست هذه كل الأسئلة التي كان يثيرها هؤلاء النظريون . وعلى عكس هذا في وسع من يدرسون الطبيعة البشرية أن يطبقوا معلوماتهم في الوقت المناسب لتحقيق خيرهم وخير من يشاءون من البشر . فهل يزعم الباحثون عن الظواهر السماوية أنهم متى اكتشفوا القوانين التي تتولد عنها : فسوف يصبح في وسعهم أن يخلقوا الرياح والأمطار والفصول وما شابهها حسب حاجتهم ؟ أم تراهم لا يتوقعون شيئاً كهذا . بل هم قانعون بمعرفة أسباب هذه الظواهر المختلفة ؟

« هذا هو انتقاده للنضوليين الذين يتطفلون في البحث عن هذه الأشياء . أما أحاديثه فكانت تدور حول الشؤون البشرية . فمن المشاكل التي كان يبحثها : ما البر وما الكفر ؟ ما الجميل وما القبيح ؟ ما العدل وما الظلم ؟ ما الحكمة وما الجنون ؟ ما الشجاعة وما الجبن ؟ ما الدولة وما السياسي ؟ ما الحكومة وما الحاكم ؟ في العلم بهذه المشاكل وأشباهها ما يجعل المرء رجلاً شهماً عنده . وفي الجهل بها ما ينطوي على « الذلة » (٦٠) .

هذه الصورة التي يرسمها إكسينوفان بأسلوبه البسيط السائغ ممتعة جداً . لأنها تشير إلى الألغاز الفلسفية والعلمية التي كان على الأثينيين حلها والتي أدت إلى تمرد سقراط . وليست هذه اللفظة بقوية : فقد كان سقراط متبرماً من جراء التقلبات الناجمة عن الحروب الدائمة والمؤامرات السياسية والمشاكل الاقتصادية . شأن كل مواطن آخر . ومن جراء البحوث الصيبانية والمناقشات السوفسطائية الفارغة . ومن جراء فروض الفلاسفة وعلماء الطبيعة التي لا أساس لها . وقبل أن يوضح المرء الكون أليس من الأفضل أن يبدأ بترتيب منزله وشؤونه الخاصة ؟ وبدلاً من أن نحاول فهم الأشياء التي لا تنال ألا ينبغي أن نوضح الأشياء التي نستطيع أن نسيطر عليها ؟ نحن بشر : ألا ينبغي أن نحاول أن نعرف أنفسنا

وسائر البشر قبل أى شيء آخر ؟ وهذا يذكرنا بقصة برويها أريستوكسينوس التارنتى (٢ - VI ق . م .) : فقد التى حكيم هندي بسقراط فى أثينا وسأله : « إنك تدعو نفسك فيلسوفاً . فماذا تشتغل ؟ » فأجاب سقراط إنه يدرس الشؤون البشرية . فأخذ الهندي يضحك قائلاً : إن استحيل للمرء أن يفهم الشؤون البشرية ما لم يدرك الشؤون الإلهية أولاً . وهذه القصة طريفة من ناحيتين : أولاً - لأنها تظهر بوضوح التقابل بين نمط التفكير السقراطى والهندى . وثانياً - هذا أحد الشواهد القاطعة على بعض الاتصال الحقيقى بين الفلاسفة اليونان والفلاسفة الهنود . وليس وجود هؤلاء فى مصر واليونان بمستبعد قط (٦١) .

وفى المحاوره الأفلاطونية « الكيباديس الأولى (Alcibiades I) نجد جواباً جزئياً على الاعتراض الهندي . وتدور هذه المحاوره بين سقراط والكيباديس وهو فى الثامنة عشرة من عمره . فتاريخها إذن سنة ٤٣٢ . وهما يتناقشان فى الجزء الثالث والأخير من المحاوره فى الحكمة الدلفية : « اعرف نفسك » . ويذهب سقراط إلى أن المرء يجب أن يتأمل فى نفسه ولا سيما الجزء الإلهى منها : إذا أراد أن يعرف نفسه ويخلص إلى هذه النتيجة : « هذا الجزء من النفس يشبه الله وكل من تأمله وتوصل إلى معرفة ما هو إلهى فاز بخير معرفة لنفسه » (٦٢) . ولكن هل « الكيباديس » الأولى أصيلة ؟ يزعم بعض النقاد أنها أصيلة ولكنهم يذهبون إلى أنها من المؤلفات الأولى التى كتبت فى بدء القرن الرابع . أما آخرون فيحسبون أنها منحولة . ويورد « بيديز » (٦٣) هذه الفقرة عينها للتدليل على ذلك . وإذا فرضنا أن المحاوره أصيلة فهل تمثل الفقرة التى أشرنا إليها تفكير سقراط أم تفكير أفلاطون ؟ فقد تكون المحاوره أصيلة والكلمات المنسوبة إلى سقراط موضوعة .

أما اعتراض سقراط على علم الفلك الذى يعبر عنه اكسينوفان فهو يكاد لا يعلو عن مستوى النكتة الشعبية الأمريكية القديمة : « يتحدث الناس عن الطقس دائماً ولا يصنعون شيئاً من أجل تغييره » . لذلك كان من الغباوة والإجحاف أن يدعى سقراط ، كما سماه أريستوفانيس ، « حكيماً فى الأمور السماوية » (meteorosophist) إذ أنه كان على عكس ذلك تماماً . ونهاية عبارة

اكسينوفان المسرودة آنفا بليغة جداً : فهي تلخص الاتجاه الرئيسي لتعليم سقراط ، ويمكننا أن نضعها على هذا الوجه : « لنكن أكثر تواضعاً من علماء الطبيعة . وأكثر أمانة من السوفسطائية . فالمعرفة التي ينبغي أن نسعى للحصول عليها يجب أن تتكيف بحسب حاجاتنا الشخصية والاجتماعية . والمهم هو أن نعرف كيف نحيا حياة سعيدة وشريفة ، وأن نكون مواطنين أحياناً » .

كان ذلك يتطلب أسلوباً خاصاً ، هو بالنسبة إلى البشر عامة بمثابة الضمير بالنسبة إلى الفرد . يجب أن نبنى السياسة والأخلاق على أساس صحيح . ويجب أن نسخر الميتافيزيقى للأخلاق . وإذا أردنا أن نناقش مناقشة مجدية ، فينبغي أن نحلل أحكامنا ونحدد المقدرات التي نستعملها ، ونذكر ما نتكلم عنه بالضبط . وينبغي أن نصنف الأشياء التي نعالجها ، فنحاول أن نعرف العلاقة بينها وبين الأشياء الأخرى ، وهذا يتطلب رسم كل لفظة وتحديداتها . وعندها يمكننا أن نتقدم خطوة بخطوة بالاستقراء (epagoge) ، أى بسرد جميع الجزئيات التي يجب معالجتها ، ونستخلص منها نتيجة منطقية . وقد دعا سقراط الفن الجدلى الذي كان يستعمله التوليد (maieutic) ، ذكرى لمهنة أمه ، فكان يستخلص بواسطة أسئلته المحكمة من الناس الذين كان يجادلهم الاعتراف بأخطائهم والإقرار بالحقيقة . وفي حديثه مع الخليلية « ثيودوتى (Theodote) » يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويدعو نفسه « قوادا » في معرض شرحه لها كيف تصطاد الخلان^(٦٤) ، وهذه القصة شاهد حسن على سخريته وحماسه كعالم . وما كان يرفض أن يتحدث مع كل من يصادفه في الشوارع ، أو في منزل أى صديق ، وأن يدخل معه في النقاش عارضاً أحب آرائه إليه ، ومرغماً إياه على التسليم بصحتها .

كان سقراط أول علماء المعاني^(٦٥) ، فقد كان يشرح للناس الذين كان يتحدث إليهم خطر استعمال « الألفاظ الضخمة » ، أو الألفاظ المجردة التي لم يكونوا ليفقهوا لها معنى .

كان يؤكد أن الفضيلة ضرب من المعرفة ، وأنه يمكن تعليمها ، والفضيلة



ΤΙ μὲν ἔμεις, ὡ ἀδέρφει Αἰθιωταί, πεποθεταί ἔσοι
 ἡμῶν κερταροί, οἷα ἀ-
 δα ἔργα. τί μὲν αὐτῶν ὑπὸ
 αὐτῶν ὄληται διὰ ἑμαυτῶν
 ἐπιλαθόμενοι οὕτω πηδανῶς ἔλθου, ἥτοι ἀλα-
 θῆς γὰρ (ὡς ἔπος εἶπυ) οὕτως εἴρηκεσι μάλλιν
 ταῦ αὐτῶν ἐν ἑταίμασσι ἡμῶν πολλὰ καὶ ἐφάν-
 οσητο, ἥτο, οἷα ὅ ἔλθου ὡς χυλοῦ ἡμῶν βίλα-
 βείσθαι μὴ ἔσοι ἔμοι ἐξέπαυθητι, ὡς διποῦ
 ὄπως λέγει. τὸ γὰρ μὴ ἀρχαυθῆναι ὅτι αὐτῶν
 ἔσοι ἐμοὶ ἐξέλεγχθησι) ἔργου, ἐπιπυθῶ μισθῶ
 ὄπως ποῦω φαινομένη διποῦ λέγει, τὸ τῶ μὴ ἐδ-
 χει αὐτῶν ἀγαθωτάτα τῶ) εἰ μὴ ἀρα διποῦ
 κελοῦσσι ἀδικαί λέγει, τὸι πολλὰ ἡ λήθησσι εἰ μὴ
 γὰρ ἔσοι ἔργουσι. ἑμαυτοῖσι καὶ ἔργου γὰρ πῶν-
 τοις τῶ) ἵπταρ ἦτοι μὴ ὄλω, ὡς ἔργου λέγει μ-
 ἔν ἀληθῆς εἰρήνησσι ἡμῶν δι μὴ ἀκουσθησθῶ
 πῶσθαι τῶν ἀληθῆσσι ἢ μῶσθαι μὴ Δία, ὡ ἀδέρφει
 Αἰθιωταί, κεκαλλιπταμένοι γὰρ λόγου (ὡς ἔργου
 τῶσθαι) ἵπτασσι τὸ καὶ ὄμασσι, οἷα ἑκακοσμη-
 μένοι, ἀλλὰ ἀκρυσθῶσι εἰπὴ λήθησθαι τοῖς ἕπι-
 τυροῦσθαι ὄμασσι πεποιῶν γὰρ δίκαια τῶ) ἀ ἔργου
 τῶ μὴ δίκαια εἶπὴ ἑκακοσμησθῶσθαι ἄλλως. οἷα γὰρ
 αὐ δὴ πῶσθαι ἔργου, ὡ ἀδέρφει, τῶδ τῶ ἡλικία, ὡσπῶ
 μωραῖα σθλὰ ἵπταρ ἑκακοσμησθῶσθαι ἔργου καὶ
 μέσθαι τῶ πῶσθαι ὡ ἀδέρφει Αἰθιωταί, ἦτο ἡμῶν διπο-
 μω τῶσθαι ἔργου ἔσοι ἔργου. ἦτοι αὐτῶν ἑκακοσμη-
 σθῶσθαι μω σπυλοσθησθῶσθαι δι ὡσπῶ εἶπὴτα λέ-
 γει καὶ τῶ ἀργου καὶ ἕπι τῶσθαι πῶσθαι τῶ, (ἡα ὡ
 μω) οἷ πολλοὶ ἀκρυσθῶσθαι, καὶ ἄλλοσθαι) μω τῶ
 μω (ἡ μωτῶ σπυλοσθῶσθαι ἑκακοσμησθῶσθαι γὰρ ἡτῶ
 σθῶσθαι μω ἔργου ἕπι δίκαια ἔργου ἀδικησθῶσθαι,
 ἦτοι γοργῶσθαι σθλὰσθαι ἑκακοσμησθῶσθαι. αὐτῶσθαι ἦ
 τῶσθαι ἔργου τῶσθαι ἔργου. ὡσπῶ ἔργου αὐ εἰ τῶ
 ὡσθαι ἔργου ἔργουσθαι ὡσθαι ἔργουσθαι τῶσθαι αὐ
 μω εἰ τῶσθαι τῶσθαι τῶσθαι τῶσθαι ἔργουσθαι

Me dicendum
 ab illis oratio-
 ne esse laetor.
 Nam illi &c.



ὄνομα ἢ modo, Athe-
 nienſes animi veſtri ac-
 culatorum meorum ora-
 tionē affectū fuerunt atque
 comparant, nec: eorum quidē
 ipſe illorum ſermonibus
 ſum conſtitutus, ut imperſus prope-
 modum fuerim oblitus. ita accommodatē ad
 fidem & perſuaſionem dixerunt. quanquā
 nihil certē (ut ipſo verbo cōſpiciat) veri di-
 xerunt. At inter multa quae falſo protule-
 runt, illud vnum ſum demitatur, quod vos
 monuerunt ut diligenter caueretis ne à me
 ſeduceremini, quaſi dicendi facultate pluri-
 mūm valeam. Quod autem minime illos
 puduit eius rei, in cuius manifeſto menda-
 cio re ipſa à me continuo deprehenduntur,
 ubi primūm à vobis ad dicendum planē in-
 terpeus compertiar, illud verò omnium mihi
 viſum eſt impudentiſſimū. Niſi forte eum
 dicendi facultate valere dicant, qui verē di-
 cit. Si enim huiusmodi intelligant, equidē
 (non ex illorum tamen ſententia) me ora-
 torem eſſe profiter. At qui illi, quem ad-
 modum praedixi, nihil veri dixerunt: vos
 contra à me omniſem veritatem percipietis.
 Non tamen per ſouem, Athenieſes, elegan-
 tibus verborum ſententiarūmq; ornamentis
 contextam orationem meam (cuiusmodi
 eſt illorum oratio) ſed temerē & de me-
 dio pettos vulgaribusque vocabulis enun-
 tatos ſermones audietis. A Equa tamen &
 iuſta eſſe credo ea quae ſum dicturus: neque
 aliter veſtrum quiſquā expectet. Neque en-
 nim conſentaneum eſſet me, hac aetate, tan-
 quam puerū fidis ſermonibus ad vos pro-
 ducere. Verūm hoc vnum à vobis etiam at-
 que etiam peto & ſſagito, Athenieſes,
 ſi eorundem illorum ſermonū via S. rano-
 ne qua cōſuevi dicere & in foro & in nu-
 mulatorum menſis (quibus in locis & a-
 liis veſtrum plerique me comprehेरunt) de-
 ſendentem me audiat, illud nec vobis mi-
 rū videatur, nec hac de cauſa tumultuſ exi-
 teris. Sic enim omnino ſe res habet, nūc ego
 primūm in iudicium prodeō, a annos plus
 ſexaginta natus, ut in hoc quidem forenſi

a. Geni. caſus de-
 riam. Accurſo enim
 ſum conſtitutus
 bus cōparant, nec:
 modo, ut eorum
 quidē ipſe illorum
 ſermonibus
 ſum conſtitutus,
 ut imperſus prope-
 modum fuerim oblitus.
 ita accommodatē ad
 fidem & perſuaſionem
 dixerunt. quanquā
 nihil certē (ut ipſo
 verbo cōſpiciat) veri
 dixerunt. At inter
 multa quae falſo
 protulerunt, illud
 vnum ſum demitatur,
 quod vos monuerunt
 ut diligenter caueretis
 ne à me ſeduceremini,
 quaſi dicendi
 facultate plurimūm
 valeam.

b. Pollicetur et vobis
 illorum, et beneper-
 cipietis omnem veritatem
 que ſibi conſtat.

c. Propter hoc, quod
 vnum peto pro ea
 de cauſa, ut quae
 ſi vobis, Geni. quidē
 illa manentia, & bene-
 perſus tam conſentaneum
 eſt illorum & la-
 mularum, quae quidem
 ut me comprehेरunt
 eorum praeter me
 ſermonibus reuerentia
 que quae legi haberi
 valeant.

genere dicendi planē ſim peregrinus. AEquē igitur acſi reuera peregrinus eſſem, ita mihi ve-
 niam dandam ſtatutorē, qui nimirum & illācra verbis & eadem loquendi forma utar, in
 B.iii.

(الشكل ٥٩) مطلع دفاع سقراط في الطبعة اليونانية اللاتينية (٣ مجلدات ، جنيف ؟
 هنري كوكس ستيفانوس (١٥٧٨)) عن النسخة الموجودة في مكتبة كلية هارفرد - Harvard Gollege
 وناشر النص اليوناني هو هنري إتبين - هنري كوكس ستيفانوس (١٥٢٨ - ١٥٩٨) . أما الترجمة
 اللاتينية فن عمل جان دي سير - يوهانس سيرادوس (١٥٤٠ - ١٥٩٨) . وهذان الكتابان مرتبان
 على ستة أعمدة ، وترقيم هذه الطبعة هو الترقيم الذي يرد في كل طبعة علمية . مثلا : الصفحة أعلاه
 هي الصفحة ١٧ من المجلد الأول ، ونجد في طبعة « مكتبة لويب (Lioeb Classcal Library)
 في هامش مطلع « الدفاع » : St. 1, P, 17. . راجع الشكل ٨١ من أجل صفحة العنوان .

الكبرى هي الاعتدال . وكانت فكرة الله عنده تختلف كل الاختلاف عن العقل المجرد (mus) عند أناكساجوراس ، وتقرب من فكرة العناية (pronoia) عندنا . وواجبنا أن نهتم بأنفسنا أولاً، ونشكر العناية الإلهية عليها . فوعينا لذاتنا هو جوهر ذاتنا . والتقوى من الفضائل الأساسية ، وأول شروطها النزوع نحو ما هو إلهي . وهكذا كان عند سقراط قدر من الصوفية^(٦٦)، التي ليست من الصنف الهندي . بل من صنف آخر يحكمه العقل والبروية . وكان فيه أيضاً خلة من خلال المبشرين : فكان يؤمن أنه عهد إليه برسالة واضحة ، وهي الاهتمام بنفوس مواطنيه وتعليمهم الحق والخير . وكان لزاماً عليه أن يطيع تلك الأوامر . وهاك ما يقوله في « دفاعه » الأبي (رسم ٥٩) .

« اعلّموا أن الله يأمرني أن أفعل ذلك . وأنا أؤمن أنه لم تصب المدينة قط خيراً أعظم من وقف حياتي على خدمة الله . فأنا أطوف بينكم ولا هم لي إلا حثكم صغاراً وكباراً . ألاّ تحرصوا على سلامتكم أو على أموالكم فوق حرصكم على كمال ذواتكم حتى ولا مثل ذلك . وأنا أقول لكم إن الفضيلة لا تصدر عن المال . بل عنها يصدر المال وجميع النعم الأخرى : سواء أكانت للفرد أو للمجتمع . وإذا كنت أفسد الشبيبة من جراء قولي هذه الأشياء فتلك أمور مضرة إذن . ولكن إذا زعم أحد أنني أقول غير ذلك فهو كاذب . لهذا أقول لكم ، يا أهل أثينا . اعملوا بنصيحة أنتوس^(٦٧) أو لا تعملوا . واخلوا سبيلي أو لا تخلوه . ولكن ثقوا أنني لن أغير سيرتي حتى ولو مت مراراً وتكراراً^(٦٨) . »

ويشرح سقراط في « جورجياس » أنه خير للمرء أن يُظلم من أن يظلم . وأن شقاء الرجل الظالم يهون إذا لحقه العقاب . وهذه المحاوره هي دفاع أفلاطون نفسه . ولا محل للشك في أصالة ما يعزوه فيها من أفكار لسقراط . وينبغي أن تقتصر شكوكنا على الفروع والواحق . لأن الشاهد يصعب شهادته بشعوره الخاص لا محالة .

كنا نحب أن نتابع سرد أقوال سقراط كما يقتبس المرء من الإنجيل . ولكن من الأفضل أن يرجع القارئ لمحاورات أفلاطون الأولى وإلى اكسيونوفان . لأن

جميع هذه الأقوال أشد وضوحاً في سياقها الخاص ، وينبغي أن نبرز شخصية سقراط كاملة . ونجد أنه يختلف اختلافاً تاماً ، لا عن السوفسطائيين وحسب ، بل عن الفلاسفة الذين سبقوه ، حتى وعن ديموكريتوس الحكيم . وقد أدخل شيئاً جديداً كل الجدة في التجربة الإنسانية ، وهو الجمع بين الحكمة والقداسة واعتبر الأخلاق والسياسة جزءاً من الدين .

كانت شخصيته شاذة بعض الشذوذ ، فكان خشناً وساخراً في الأغلب ، عقلياً المنحى رغم نزعته الصوفية الغربية التي ذكرناها آنفاً ، وكثيراً ما كان يشير إلى الوحي الإلهي الذي كان يرشده . ورقته الفريدة وجاذبيته الخاصة إنما تبدو في بعض ألفاظ صوفية . كما نجد مثلاً في خطاب الكيبايديس في « المأدبة » . وعلى وجه أوسع في المحاوراة الأفلاطونية « تياجس »^(٦٩) . وخير وسيلة للتدليل على عظمته الخارقة هي رواية قصة مماته .

كانت أفعاله التي يوردها تلامذته بريئة جداً . ولكن من السهل أن نتصور كم كانت سخريته جارحة لكبرياء لنيف من الناس ، وكم كانت بساطة حياته استنكاراً صامتاً لحياة أولئك الذين كان غرضهم الأول في الدنيا الثراء بشتى الوسائل الشريفة أو غير الشريفة . والتمتع بالملذات . فكان سقراط بالفعل تقريباً حياً لهم جميعاً ، ولاغرو إذا هم أبغضوه لذلك . ورغم حسن طوبته كان له أعداء وطدوا العزم على هلاكه . وكانت الديمقراطية الأثينية تتصف بالقوى التي تقرب من الإيمان بالخرافات . ونزعة سقراط العقلية رغم الصوفية التي كانت تخفف من حدتها ، مقلقة للأثينيين ، خصوصاً ، وصوفيته عنها تختلف كل الاختلاف عن تعصب مواطنيه بحيث كانت داعياً لشكوى أخرى . وقد رجب أعداء سقراط وحساده باقتراءات أريستوفانيس ، لأنهم لم يطبقوا استقامته ، ونمقوا هذه الاقتراءات وروجوها . وسنة ٣٩٩ على أثر سقوط الطغاة الثلاثين وجه إليه الاتهام التالي : « إن سقراط آثم لإنكاره آلهة الدولة الرسميين وإقحام آلهة غريبة ، وهو آثم كذلك لإفساده الشبية » . وإزاء ذلك حكم عليه بتجرع السم وقتل نفسه بيده . وينبغي أن نضيف في معرض الثناء على

الديمقراطية الأثينية ، أنه كاد يبرأ ، لأن الحكم بإدائته لم يفز إلا بأكثرية ٣٠ من ٥٠١ صوت . وكان من اليسير أن تصوت هذه الأكثرية في مصلحته لو أنه حاول أن يكسب عطف « المجمع الأثيني » بالكلام اللبق ، أو لو أنه دافع عن نفسه دفاعاً جديداً . ولكنه فعل عكس ذلك : فكان دفاعه آية من آيات السخرية ، وخطابه كفيلاً بتأليب ذوى العقول الضيقة عليه (٧٠) .

وقد صدر الحكم غداة سفر السفن المقدسة إلى « ديلوس » ، ولم يكن من الممكن تنفيذه قبل عودتها ، أى بعد ذلك بشهر ، إلا بنحوق الطقوس الدينية . وهكذا استطاع أن يبقى شهراً كاملاً في السجن تمكن ، بفضل رفيق الأثينيين من قضائه ، من التحدث إلى عائلته وأصدقائه (٧١) . وقد حفظت أحاديثه هذه في محاورات أفلاطون (٧٢) — لا سيما في محاورتين خالديتين : « أقریطون » (في الواجب) و « فيدون » (في النفس) . كان أقریطون صديقاً حميماً لسقراط ، ورجلاً من أصحاب اليسار ، وكان يزوره في السجن ويحاول إقناعه بالهرب . ومن المحتمل أن القضاة أنفسهم كانوا يرحبون بهذا الحل ، لكنه رفضه . لأن واجب المواطن الأول ، عنده ، أن يطيع شرائع الدولة ولو كان تطبيقها مجحفاً . وما كان الظلم ليقاوم بالظلم . وإذا كانت المدينة قد حكمت عليه بالموت فكل فرار من هذه البلية ضرب من الخيانة ، ولا بد له أن يموت . هذه المحاوره أروع دفاع عن القوانين عرفه التاريخ . وهى من تأليف أفلاطون بالطبع ، ولكنها تمثل آراء سقراط لأنه في الواقع لم يحاول الهرب .

نجد في « فيدون » (رسم ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢) الحديث الذى دار بين ثمانية أشخاص في السجن أثناء أيام سقراط الأخيرة وذكر عدد كبير غيرهم أن الفيلسوف سعيد بالموت ، لأن المثل أزلية ، ونفسه سوف تخلد بعد ذلك . وتنتهى « فيدون » بوصف لوفاته يقتضى إيراده هنا كاملاً :

« ولما فرغ من هذه العبارة ، نهض ودخل غرفة الحمام ، يصحبه أقریطون ، الذى أشار إلينا بأن ننتظر ، فانتظرنا نتحدث ونفكر في أمر الحوار وهول المصاب . وكنا كمن فقد أباه ، وقضى عليه أن يعيش ما بقى من أيامه كالأيام ،

فلما استحم جيئ له بأبنائه - (وكانوا طفلين صغيرين ويافعاً) ، كما وفدت نساء أسرته ، فحادثهن وأوصاهن ببعض الوصايا على مسمع من أقريطون ، ثم صرف النساء وعاد إلينا .

وكانت قد دنت ساعة الغروب ، فقد قضى داخل الحمام وقتاً طويلاً ، وعاد بعد اغتساله فجلس إلينا ، ولكننا لم نفص في الحديث . وما هي إلا أن جاء السجنان ، وهو خادم الأحد عشر ، ووقف إلى جانبه وقال : لست أتهمك يا سقراط بما عهدته في غيرك من الناس ، من سورة الغضب والصياح عندما أمرهم بتجرع السم ، انقياداً لإرادة أولى الأمر . أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل رجل وفد على هذا المكان ، ولا يخامرني شك أنك لن تنقم عليّ ، فليس الذنب ذنبي كما تعلم ، وإنما هي جريرة سواي . والآن ؛ وأنت تعلم الرسالة التي أحملها إليك ، وداعاً واحاول أن تحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد ، ثم أدار ظهره وخرج منفجراً بالبكاء .

فنظر إليه سقراط وقال : وداعاً ! سوف أصنع ما تريد . ثم التفت إلينا وقال : يا له من رجل لطيف ! إنه ما انفك يزورني في السجن ، يحادثني الحين بعد الحين ، ويعاملني بالحسنى ما وسعته ، وانظروا إليه الآن كيف يبكي شهامة من أجلّي ، فلزام علينا يا أقريطون أن نفعل ما يريد . مر أهدأ أن يجيء بالكأس إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا فليعهده الرجل .

« فقال أقريطون : ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع ، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا في ساعة متأخرة بعد إنذارهم . إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينعمون بصحبة أحبائهم فلا تتعجل إذن ، إذ لا يزال في الوقت متسع . » فقال سقراط : نعم يا أقريطون ، لقد أصاب من حدثني عنهم فيما فعلوا ، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعاً يجنونه ، أما أنا فلقد أكون مصيباً إذا لم أفعل كما فعلوا ؛ لأنني لا أظن أني سأجني من تأخير شراب السم نفعاً ما . ولو فعلت ذلك لسخرت من نفسي لتشبهها بالحياة ولم يعد فيها نفع يرتجى . أرجو إذن أن تفعل كما أشرت ، ولا تخالف رغبتى .



LONDON Printed for J. Magnes and R. Bently.

(شكل ٦١) غلاف الترجمة الإنجليزية الأولى "لدفاع سقراط" و "فيدون"
 (لندن ١٦٧٥) (عن النسخة الموجودة في كلية هارفرد).

« فلما سمع أقريطون هذا ، أشار إلى الخادم فخرج ، ولم يلبث أن عاد بعد غياب طويل يصحبه السجان يحمل كأس السم ، فقال سقراط حين رآه : أى صديقي العزيز ، إنك عارف بهذه الأمور ، فأرشدني ماذا أصنع ؟ فأجاب الرجل : تشرب السم وتسير قليلاً حتى تثقل ساqualك ثم ترقد ، فيسرى السم . وهنا ناول سقراط الكأس فحذق في الرجل بعينه الواسعتين ، وأخذ القدح برفق دون أن يرتجف أو يمتقع لونه ، ثم قال : يا إبيكراتيس ماذا ترى إن أنا أرقت جرعة من هذه الكأس على اسم أحد الآلهة ، أفيجوز هذا أم لا يجوز ؟ فأجاب الرجل : إننا لا نعد السم يا سقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً . فقال : فهمت ، ومع ذلك يحق لي بل يجب عليّ أن أضرع إلى الآلهة أن تكون رحلتي عن هذا العالم ميمونة ، فعسى أن تجيب دعائي ! ثم رفع الكأس إلى شفتيه وشرب السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتبطاً ، وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حتى تلك الساعة ، أما وقد رأينا يشرب السم ، وشهدناه يأتي على الجرعة كلها ، فلم يعد للصبر سبيل ، وانهمر مني الدمع مدارراً على الرغم مني ، وسرت وجهي بثوبني وأخذت أندب نفسي : حقاً إنني لم أكن أبكيه ، بل أبكي فجيعتي وفقداني مثل هذا الرفيق . ولم أكن أول من فعل هذا ، فإن أقريطون لم يعد قادراً على حبس عبراته أيضاً ، فنهض وابتعد ، وهنا أجهش أبولودورس الذي لم يتقطع نحيبه طول الوقت بالبكاء فأجهشنا جميعاً ؛ ولم يحتفظ منا بالهدوء سوى سقراط . وقال : ما هذا التصرف الغريب أيها الناس ؟ لقد صرفت النسوة خاصة لهذا السبب ، كى لا يتصرفن على هذا النحو المخزى ؛ وقد سمعت أنه خير للإنسان أن يسلم الروح في صمت ، فهدثوا من روعكم واصبروا .

فلما سمعنا ذلك اعترانا الحجل وكفكفنا دموعنا . وأخذ سقراط يطوف حتى بدأت ساقاه تخوران – كما قال – ثم استلقى على ظهره ، كما أشار السجان عليه ، ولسه الرجل الذي ناوله السم بيده ، وبعد حين فحص قدميه وساقيه ، ثم غمز قدمه بقوة وسأله : هل أحس ؟ فأجاب أن لا ؛ ثم غمز ساقه وما زال

P L A T O his
A P O L O G Y of **S O C R A T E S**;
 A N D
P H A E D O or Dialogue concerning the
Immortality of Mans SOUL,
 A N D
 Manner of **S O C R A T E S** his Death;
 Carefully translated from the *Greek*,
 A N D
 Illustrated by Reflections upon both the
Athenian Laws, and ancient Rites and
 Traditions concerning the Soul, therein
 mentioned.

Quintilianus institut. Orator. lib. 10 cap. 5.
 Vertere Græca in Latinum veteres nostri Oratores optimum judicabant. Id se L. Crassus in illi Ciceronis de Oratore libris dicit fecisse. Id Cicero sua ipse persona frequentissime præcipit: quin etiam libros Platonis [Timæum nempe, quem inscripsit de Universitate] atq; Xenophontis edidit hoc genere translatos.

L O N D O N,
 Printed by **T. R. & N. T.** for **James Mays**; and
Richard Bomsley at the Post-Office in **Russel-street**
 in **Covent-Garden**, 1675.

(شكل ٦٢) صفحة العنوان من الترجمة الإنجليزية الأولى "لدفاع سقراط" و "فيدون"، والمترجم غير معروف (عن النسخة الموجودة في كلية هارفرد).

يرقى عضواً عضواً ، مشيراً لنا كيف أخذ يبرد ويتصلب ؛ ثم لمس جسده وقال : ستكون الخاتمة حين يصل السم إلى القلب . فلما أخذت البرودة تتمشى في أعلى فخذيه كشف سقراط عن وجهه ، إذ كان قد دثر بغطاء ، وقال : (وكانت هذه آخر كلماته) إننى يا أقريطون مدين بربك لإيسكولا بيوس فهل أنت ذا كر أن ترد هذا الدين ؟ فأجاب أقريطون إنه سيوفى الدين . ثم سأله إن كانت لديه رغبة أخرى فلم يكن لهذا السؤال جواب ؛ وما هى إلا دقيقة أو دقيقتان حتى تحرك ؛ فكشف عنه الخادم ؛ وكانت عيناه قد جمدتا ؛ فأقفل أقريطون فمه وعينه .

هكذا يا إحيكراتيس قضى صديقنا الذى أدعوه بحق خير من عرفت من الناس ، وأحكمهم وأعظمهم براً .

وللمقارنة برواية أفلاطون هاكم إشادة اكسينوفان الأخيرة بمعلمهما :

« وكل من يعرف من أى نمط من الرجال كان سقراط . وكل من يشد الفضيلة ما زال حتى اليوم يحزن لفقده أكثر من أى امرئ آخر ، لأنه كان أكبر عون في البحث عن الفضيلة . أما أنا فقد وصفته كما كان : تقياً بحيث لم يصنع شيئاً إلا بمشورة الآلة ، وعادلاً بحيث لم ينزل أى أذى مهما صغر بأى إنسان – بل كان يغدق على كل من يعامله أعظم ضروب النفع ؛ ضابطاً لنفسه بحيث لم يختر قط السبيل الأسهل عوضاً عن السبيل الأفضل ، حكيماً بحيث لم يخطئ قط في التمييز بين الأفضل والأسوأ ولم يحتج إلى مشير ، بل كان يعتمد على نفسه في معرفتهما : حاذقاً في شرح هذه الأشياء وتحديدتها وامتحان الآخرين وإقناعهم بخطئهم وحثهم على اقتباس الفضيلة والرفق . وهكذا كان عندي مثالا للرجل العادل والسعيد حقاً . أما إذا شك شاك فليقارن خلق غيره من الرجال بهذه المزايا ثم دعه يحكم لنفسه (٧٤) » .

ولما كان هذا الكتاب موجهاً إلى رجال العلم فمن المفيد أن نضيف بعض الملاحظات الطبية : « يعد وصف أفلاطون لموت سقراط نموذجاً طبيئاً كلاسيكياً ،

فهو يتفق اتفاقاً تاماً مع ما يتوقعه المرء في ظروف مماثلة اليوم . فالسم هو الشوكران : أى الثمرة المحففة والنامية غير اليانعة لشجرة (Conium meculatum) ويسحق عادة بعد التجفيف ، ويحوى نحو نصف فى المائة من مادة الكونيين . اكتشف « جيسكى » هذه المادة القلوية سنة ١٨٢٧ . وهى مادة « البروبيلبردين » (propylpyridine) الكيماوية البسيطة . ونجد فى الكونيوم مواد قلوية أخرى من الأسرة ذاتها ، وفعلها البيولوجى كلها واحد ؛ وينحصر فى شل الأطراف القصى فى أعصاب الحركة . . ويبدأ الفعل فى أقصى الأطراف ثم يمتد بسرعة إلى غشاء القلب ، وعندما يقف هذا الغشاء عن الحركة يصاب المرء بالاختناق . فالموت - وثمة أدلة تشير إلى أنه ينشأ عنه شل للأعصاب الحساسة ، إلا أن ذلك ليس واضحاً وضوح شل أعصاب الحركة . وقد أثبت هاياشى (Hyashi) وموتو (Muto) أن عصب غشاء القلب (Phrenic) أشد حساسية من سائر الأعصاب . وهذا العصب يشرف على حركة غشاء القلب (Arch. Exp. Path. Pharmakol 48, 1910) ، ونجد وصفاً لفعل الكونيوم فى أى مؤلف جيد فى علم الصيدلة (٧٥) .

كانت إدانة سقراط عملاً شائناً لا يغتفر ، وإن كانت طريقة إعدامه شريفة ورحيمة . وعندما نقارنها بطرق الإعدام الفظيعة السرية المتبعة فى عدد من البلدان فى زماننا هذا ، لا على يد أفراد مجرمين بل بأوامر الحكومات ، يندى جبيننا خجلاً .

أما وفاته فكانت على غاية ما يكون من الجلال . فلم يكن فى كلامه مرارة أو غضب أو شتم ، بل كانت وفاة رجل فاضل ونبيلى . وهى تختلف فى وقارها وروعها عن الوفيات التى نجدها مرسومة على بعض نواويس ذلك العهد المنحوتة (٧٦) .

من الثابت أن ملابسات وفاة سقراط ساعدت كثيراً على ذبوع صيته . فقد أدت أولاً إلى إكرام تلاميذه الأقربين وتقديسهم له ، وبعد ذلك إلى إلهاج حماسة أفلاطون واكسينوفانيس اللذين حفظا أفكاره ودفعها بها إلى السلف

و وفاة سقراط ما هي إلا خاتمة رائعة لجهود الفلاسفة اليونان الذين سعوا طيلة أكثر من قرن للوصول إلى الحقيقة . فقد أسبغت مسحة القداسة على الحكمة التي كشفها إلى حدما من خلال بحوثهم ، وبفضل عبقريته و قداسته هو .

وكان بين الأصدقاء الذين شهدوا اللحظات الأخيرة من حياته إنيخيراتيس الفليسي ، أحد متأخري الفيثاغوريين وفيدون الأليسي وأبولودورس الفليروني ، وكيس (٧٧) وسمياس وكلاهما من طيبة ، وأقريطون الأثيني وابنه أقريطوبولس وإيسخينيس السقراطي وأنتستانس الأثيني وأقليدس الميجاري . ومن المدهش أن خمسة من تلامذة سقراط المقربين (منهم ثلاثة كانوا بقربه عند وفاته) من مؤسسي مدارس فلسفية : أعنى فيدون الذي أسس مدرسة في مسقط رأسه « أليس » ، وإقليدس مؤسس المدرسة الميجارية ، وأنتستانس مؤسس المدرسة الكلية (Cynic) والاثان اللذان لم يشهدا الوفاة : أرستيوس البرقاوي ، مؤسس المدرسة البرقاوية ، وأفلاطون ، وكانت علة غياب الأخير مرضه ، كما ذكر في « فيدون » ، ولا داعي للشك في كلامه . ويمكننا أن نقول إن الفلسفة اليونانية كلها بعد القرن الخامس كانت متأثرة بسقراط . وبنبغي ألا ننسى أن سقراط ترك أثراً عميقاً ، خلال عمله الطويل ، كعلم متجول ومرشد ، على عقول أناس لم يكونوا فلاسفة أو كتاباً ، واستطاعوا أن ينشروا آراءه ، ومنهم أشخاص شريريون أقوياء مثل كريتياس والكيياديس وعدد كبير غيرها ممن لم يتميزوا بفضيلة أو رذيلة ولم تحفظ أسماؤهم . لقد كان سقراط أول واضع لنظام أخلاقي من فلاسفة اليونان ، وأول من قدم القيم الأخلاقية على كل ما عداها . ومنذ ذلك الحين أخذت الأفكار السياسية والأخلاقية تحتل مكاناً أرفع . ولا نغالي إذا قلنا إن جميع المؤلفات الغربية في هذا الموضوع تنبع مباشرة أو بالواسطة من تعاليمه . فهيمنت حياته ووفاته على الأخلاق في العالم الغربي كله ، ولم يمح أثرهما أو يتضاءل من جراء ظهور المسيحية .

هذا تاريخ للعلم لا للفلسفة ، وقد قيل أحياناً إن أثر سقراط المبرور على

الفلسفة كان وبالاً على العلم . وقد يدعو بعض النقاد رجعيًا من جراء ثورته على أصحاب الفلك والآثار العلوية وجميع الذين انصرفوا إلى النظر في الأشياء السماوية وتحت الأرضية عوضاً عن الحياة البشرية العادية . ويذهب « أولستيد » إلى أبعد من ذلك زاعماً أن تأثير سقراط على العلم كان كارثة (٧٨) . وهذا صحيح في الظاهر فقط لا في الواقع . فرجال العلم الذين رافقوني حتى هذه المرحلة وقرأوا سيرة الفلاسفة السابقين لسقراط أصبحوا في الراجح متبرمين ومتمردين تمرد سقراط نفسه . لقد كان أسلوبهم العلمي فاسداً ، وتأملاتهم المبنية على معلومات غير وافية لا غناء فيها ، وكثيراً ما كانت نظرياتهم الفلكية سخيفة ، وبذا أخطأوا سواء السبيل جملة ، ولو أجزى (كما أجزى أنا) أن هذه المغامرات كانت ضرورية ولا مناص منها ، فإنها استمرت أمداً طويلاً ، ويبدو أن فلاسفة القرن الخامس استنفدوا جميع التخيلات الممكنة في عصرهم ، وكان في جرأتهم شيء يدعو إلى الإعجاب وإن أسرفوا في ذلك . وكان من اللازم التوقف ، وذلك ما دعا إليه سقراط ، وإذا كان قد تطرف في ذلك ، فإنه لم يكن هناك مناص منه ، ولعله لم يكن في وسع امرئ آخر أن يجيد ما فعله كما أجاد .

وفوق هذا ، بين أفكاره ما يعد مساهمة إيجابية ضرورية لتطور العلم في المستقبل ، فثمة أولاً تمسكه بالتحديد والتصنيف الواضحين ، ولا جدوى في المناقشة إذا لم نكن نعرف على أدق وجه ممكن الموضوع الذي نتكلم عنه ، وهذا شيء أساسي في العلم أكثر منه في الفلسفة . ثانياً : كان يستخدم أسلوباً جيداً للجدل والكشف المنطقي (وهو ما دعاه بـفن التوليد) ، ويجب أن يتمرس العلماء بـفن المناقشة الحالية من الأخطاء المنطقية ، وإلا توصلوا إلى نتائج خاطئة . ثالثاً : كان يشعر شعوراً عميقاً بالواجب واحترام القانون ، وإن نمو العلم الصحيح يتطلب صفاء أخلاقياً وصدقاً وتربية فردية واجتماعية ؛ ولا سبيل للمواطن الفاسد أن يكون عالماً صالحاً . رابعاً : إن شكه العقلي يكون نقطة ارتكاز البحث العلمي ، وعلى العالم أن يتأهب لاستئصال دعائم التعصب والخرافات قبل أن يشرع في البناء . بالطبع لم يكن شك سقراط تاماً فلم يمتد مثلاً إلى موضوعات الكهانة ،

وما ذلك إلا لتأثير البيئة عليه . وشكوكنا متصلة دائماً بالعقائد التي تقبلها الكثرة الغالبة من جيراننا ، مهما بلغ من غرابتها .

لم يبع الفلاسفة السابقون أهمية هذه النقاط الأربع . أما سقراط فقد وعاهها وعياً تاماً وشدد عليها كل التشديد ، ولهذا السبب وحده يستحق أن يتبوأ مكاناً عالياً جداً في تاريخ العلم . وإن ثورته على السفسطة والدعاوى الواهية على اختلاف أنواعها لثورة يتفق معه فيها كل العالم ، إذ أن رأس الحكمة العلمية ، على وجه التخصص ، الإقلاع عن النطق بأقوال لا أساس لها .

لم تكن تفرقة سقراط بين المعرفة النافعة وغير النافعة موفقة كل التوفيق ، بل رجعية . فعندما زعم أنه من المضحك أن نفحص عن النجوم و « عما يدعى بعالم الأساتذة »^(٧٩) ، فإنه إنما كان يقفل باباً ينبغي أن يترك مفتوحاً . قد ترفض بعض الأساليب العلمية الفاسدة أو المناقشات الباطلة ، ولكن من المستحيل القول اعتباطاً بأن بحثاً مفيداً وأخرى غير مفيدة ، وتاريخ العلم كله يبرهن على ذلك . ولعل سقراط كان يستسخف كل الاستخفاف الفحص عما يتم للأشياء المجاورة لقطعة من الحديد الممغنط أو الكهرباء عند حكه ، إلا أن هذه هي السبيل إلى معرفة المغنطيس والكهرباء وجميع الصناعات الكهربائية التي غيرت وجه العالم . كان سقراط أول من أثار مشكلة النزاع الدائم بين « العلم النظري والعلم التطبيقي » ، التي يمكن حلها بالإشارة إلى أن الأخير لا ينمو بل لا يوجد دون الأول . وكان أول من أثار أيضاً النزاع بين « الإدراك البدهي » و « الأحاجي » العلمية . ونعرف اليوم أنه كثيراً ما تكون الرواية خاطئة بينما تنطوي « الأحاجي » على الحقيقة . ولا محل للومه كثيراً ، لأنه وقع في هذه الأخطاء في زمن كانت فيه تجارب البشر العلمية لا تزال مبدئية .

كتاب أيوب :

طال هذا الفصل الذي كرسناه لفلسفة القرن الخامس كثيراً ، مع أننا قصرناه على ثمارة صغيرة نسبياً هي الأمة الناطقة باليونانية . وفي خلال قرن واحد صاغ الفلاسفة اليونان عدداً من أعمق المشاكل الفلسفية ، وإذا كانوا

لم يجلوها فإنها ما زالت تقلق الفكر البشرى حتى اليوم . ولعل من المجدى أن نفحص عن الأفكار الفلسفية التي كانت تعالج عند أمم أخرى من أبناء القرن ذاته، وإن أدى بنا ذلك إلى شيء من التطويل . ومن الممتع مثلاً أن نعرض على « كونغ تشى » (القرن الخامس ق. م.) حفيد كنفوشيوس ومؤلف اثنين من « الكتب الأربعة »^(٨١) : « نظرية الوسيلة » و « العلم الأعظم » (على الغالب) ، وموتى فى (الخامس ق. م.) الذى جمع بين آراء نفعية وغيرية أخلاقية متطرفة، والذى يدعى أحياناً واضع المنطق الصينى . أما المقارنة بالفلسفة الهندية المعاصرة فستحيلة ، رغم متعتها ، لاستحالة الاطمئنان إلى التوقيت الزمنى . وثمة مقارنة واحدة يمكننا أن نخوض فيها باختصار وهى المقارنة بـ « كتاب أيوب » .

وتبدو هذه المقارنة أقرب متناولا ، إذا ذكرنا أنها لا تستدعى التوغل فى بلاد بعيدة بعد الهند أو الصين ، ويكفى أن تنتقل ذهنياً إلى بلاد قريبة جداً من العالم اليونانى ، رغم بقائها منفصلة عنه انفصالاً غريباً . وتاريخ تأليف كتاب أيوب غير ثابت ، وأغلب الظن أنه كتب فى القرن الخامس (أو الرابع)^(٨١) ومؤلفه يهودى أو أدومى^(٨٢) : أى فلسطينى على كل حال . وكانت فلسطين أقرب إلى بلاد اليونان من عامة المستعمرات اليونانية . ولعله اطلع على المصادر البابلية^(٨٣) ومن المحقق أنه اطلع على المصادر المصرية : فهل من المتابع نفسها التى نهل منها معاصروه اليونان ، إلا أن ثمرة تأملاته تختلف كل الاختلاف عن ثمرة تأملات هؤلاء . ولنفكر فى هذا اللغز لحظة واحدة : لقد قلد العبران واليونان نماذج مصرية ، فأبدعوا فى صنع الآيات العبرانية واليونانية الرائعة . فها هو التقليد ؟ كل امرئ يقلد سابقه ، والتعليم ، إلى حد بعيد ليس إلا ضرباً من المحاكاة لنماذج معترف بها ، لكن كلاً يقلد بحسب عبقريته ؛ وإذا كان له حظ من العبقرية فهو يخلق جديداً .

إن كتاب أيوب^(٨٤) آية من آيات الأدب العالمى . وقد عدّه تيسون « أعظم شعر فى التاريخ » . وموضوعه من الأمور التى ما زالت تحير لب الإنسان وتقلق باله : كيف يمكننا أن نفسر العقوبة التى تلحق بمن لا يستحقها ؟ ولماذا يسعد

الشرير ويشقى الخير؟ تنطوى هذه الأسئلة على مشكلة الشر والعناية الإلهية (Theodicy) كما يدعوها ليبنتز ، أى إقرار عدالة الله رغم الشر الطبيعي أو الأخلاقي الذى تجيزه أحياناً . ولكن كيف يمكننا التوفيق بين وجود الشر وفضل الله وقدرته الكاملة؟ لقد أدرك أيوب (أعنى مؤلف كتاب أيوب) أن المشكلة لا يمكن حلها ، نظراً إلى تعالى الله الذى لا يمكننا النفوذ إلى سره وإلى إدراك الإنسان السقيم . تأخذ نكبات المرء بمجامع عقله وقلبه ، ولكنها ليست بذات خطر فى سيرة الكون العامة . وكيف يمكننا أن نفصل فى الأمر؟ إن تساؤل أيوب يهزنا حقاً لأننا لسنا نعرف عن المشكلة فوق ما كان يعرف .

إن صحة كتاب أيوب بأكله مشكوك فيها وتكوينه غير متجانس الأجزاء^(٨٥) . ولا يصح أن نعير الغموض والتناقض اللذين نجدهما فيه كبير اهتمام ، لأنهما طبيعيان فى لغة أصحاب العاطفة المشبوبة وفى النظم الشعرى الرائع : وكتاب أيوب قصيدة لا مقالة علمية . والرجل الذى كتبه شاعر عبقرى ، وصف بإحكام ودقة عجائب الكون وحكمة الله ، وقد جمع بين المعرفة والواقعية فى خيال بديع ولغة جميلة جداً ، وهو يستخدم استعارات قلما استعملها مؤلف آخر^(٨٦) .

استخلص الأنبياء العبرانيون من حكمة الشرق العريق فى القدم فكرة التوحيد ، وأسبغوا على إلههم القومى السلطة الشاملة ، وجعلوه رمزاً حياً للكمال الأخلاقي والعدالة المطلقة . وبهذه الرغبة نفسها حاول الفلاسفة اليونان أن يفسروا وحدة العالم على أساس المعرفة الوضعية ، فكانت فكرة الله عندهم أقرب إلى الطبيعيات والكونيات منها إلى الأخلاق . ومن الغريب حقاً أن يكون إله أيوب أقرب إلى النماذج اليونانية من النموذج اليهودى ، فهو لا يشير إليه قط باسم خاص : وإلهه ليس إلهاً قومياً بل كونياً . ومع ذلك وقع هذا التطابق مصادفة ، ولا مبرر لافتراض أن مؤلف (كتاب) أيوب تأثر بالنماذج اليونانية ، أو العكس . ومن الجدير بالنظر أن يقارن كتاب «أيوب» «بروميثيوس الموثق» Prometheus bound لإسخيلوس . وهذا يثبت مرة أخرى وحدة العبقرية البشرية التى هى مظهر لوحدة الطبيعة ، وصورة لوحدة الله .

تعليقات

(١) نغى خاصة الأنبياء العبرانيين الذين جمعت أقوالهم في العهد القديم والذين عاشوا على الأرجح في الحقبة الواقعة بين القرنين السادس والتاسع . وقد قام في آسيا عدد كبير من أنبياء آخرين مثل - زرادشت (القرن السابع ق . م . ؟) الذي تسربت آراؤه إلى آسيا الصغرى وبلغت العالم اليوناني عن طريق « المجوس » (راجع : J. Bidez & F. Cumont, *Les mages hellénisés*, Paris, Les Belles Lettres, 1938. ثم بوذا وماهافيرا في الهند وكونفوشيوس ولاوتسو في الصين - ومن الغريب أن جميع هؤلاء عاشوا في القرن ذاته : أى السادس .

(٢) كان مؤرخو العقائد (doxographers) مصنفين دونوا لنا تاريخ الفلاسفة ومقتطفات من كتبهم . أهمهم أرسطو وثيوفراستوس ، إلا أن كتب الأخير التاريخية لم تصلنا مباشرة بل في مقتطفات لاحقة . وقد نسب إلى بلوتارك (٢-١) وستوبايون (٢-٧) وسواهما مجموعات للآراء الفلسفية تعرف بالـ *Placita philosophorum* (مباحج الفلاسفة) . ولكن يرجح أن الرواية البارز بين هؤلاء كان « أيتيوس » ، الذى لا نكاد نعرف عنه شيئاً . ولعله عاش في أواخر القرن الأول بعد المسيح . ومعظم هذه الآراء إنما وصلنا عن طريق غير مباشر في مقتطفات من كتب مناهضى الفلسفة كالشكاك والمبشرين المسيحيين الذين حاولوا أن يخطوا من شأن الوثنية . وقد أوضح هذا الموضوع الصعب قدر المستطاع ، هرمان ديلز (١٨٤٨ - ١٩٢٢) في *Doxographi graeci* (Berlin, 1879 Editio iterata, 864, pp. 1929) ومن أراد شرحاً أوجز لهذه المشاكل التاريخية فليراجع : P. Tannery, *Pour l'histoire de la Science hellène*, 1887, new ed., 1930. pp. 19-29.

Isis 15, 179-180 (1931)

(٣) حول هيكل أرتميس (ديانا) راجع : G. Sarton & St. John Ervine, "John Turtle Wood, discoverer of the Artemision 1869", *Isis* 28, 376-384 (1938), 4 figures. كانت أفسوس من الأماكن المقدسة في العصور القديمة ، وأصبحت بعد ذلك من أول المقدسات المسيحية . لاحظ زيارة القديس بولس لها ورسالته إلى أهل أفسوس .

(٤) توجد طبعة لكتاب هيراكليطوس *On the Universe* (حول الكون) ، وترجمة إنجليزية من عمل W.H. S. Jones في آخر المجلد ٤ (١٩٣١) من طبعة Jones لأبقراط في مكتبة لويب الكلاسيكية Loeb Classical Library ويحتوى ذلك المجلد على ترجمة حياة هيراكليطوس من تأليف ديوجينيس اللايرسى المذكور (١ - III) .

(٥) الشذرة ١٦ .

(٦) « لا يمكنك أن تخوض في الجدول نفسه مرتين ، لأن مياهها أخرى لا تلبث أن تجرى نحوك » ، شذرة ٤١ ، راجع أيضاً شذرة ٨١ .

(٧) إن الانسجام غير المرئي يفوق الانسجام المرئي (شذرة ٤٧) . نقش الأصل اليوناني لهذا المبدأ على مدالية تذكارية قدمتها الأكاديمية الفرنسية للعلوم لهنرى بوانكاريه (١٨٥٤-١٩١٢) الرياضى الكبير . وقد صورت المدالية ووضعت فى مجلة Isis ٩ ، ٤٢٠ - ٤٢١ (١٩٢٧) . قابل أيضاً الشذرة ٤٥ : « هم لا يفهمون كيف يتفق ما يناقض نفسه مع نفسه : انسجام التوتر ، كما فى التوتر والقيثارة » ، وأيضاً شذرة ٥٦ و ٥٩ .

(٨) هذه بداية الشذرة ٣٦ ، وينبئ أن أثبت هنا بقيتها لكى أدلل على طبيعة أقواله الغامضة : « إلا أنه (أى الله) خاضع للتقلبات ، كالتار فهى إذا امتزجت مع بهار ما دعيت باسم الطعم الخاص به . وسائر ما وصلنا من كتاب « فى الكل » مجموعة من الأحاجى .
(٩) الشذرة ١٠٠ .

Plutarch, *Life of Pericles*, IV, V, VIII, Translations by Bernadotte Perrin, (١٠)

Loeb Edition of the *Lives*, Vol. 3, pp. 11-21.

(١١) نجد خير تحديد « للعقل » هذا عند هرمياس ، أحد النقاد المسيحيين للفلاسفة الوثنيين ، وقد ازدهر فى القرن الخامس أو بعده بقليل (راجع هرمياس فى (Diels, *Doxographi graeci*, 1879, p. 625) وهو يقول : « العقل (نوس) مبدأ الكون وعقلته وحاكمه ، يمنح النظام للأشياء غير المنظمة ، والحركة للأشياء غير المتحركة ، ويفصل الأشياء المختلطة ويجعل من الفوضى (كاوس) عالماً منظماً (كوسموس) . ولو سلمنا بهذا التحديد الراجع ، الصادر عن خصم ، لاضطررنا للقول أن أناكساجوراس هو أبو الثنائية الفلسفية ، ولكننا لسنا واثقين من الأمر كما وثق هرمياس . ولو أردنا أن نذهب إلى الطرف الآخر لفسرنا « نوس » « بالطاقة » ، ولكن من الأفضل أن نحفظ بالعبارة اليونانية ، ونعترف بأننا نجعل معناها الدقيق .

(١٢) راجع الشذرتين ١٥ ، ١٦ فى Tannery ، رقى ٣ و ٦ فى Diels . لنكرر أن « البنور » ليست أبسط من سائر الأشياء ، ولا مختلفة عنها فى التركيب . ولو أردنا أن نشرح ذلك بالرجوع إلى صورة حديثة ، وهى محاولة خطيرة فى رأيي ، نقول إن البذور هى نقاط التنظيم الأول (الحاصل بالمصادفة) التى تؤلف الخميرة للتنظيم العام . ويدعو لوكرتيوس (Lucretius) هذه البذور

« هوموميريا » (Homoimeria) (أجزاء متجانسة) - راجع De rerum natura I, 830 ff.

(١٣) الأولى فى Diels و Tannery . ولعلها كانت أول عبارة فى مقالة أناكساجوراس .

(١٤) ليس التمييز بين الهواء والأثير واضحاً جداً . كان أناكساجوراس يدرك أن الهواء جسم وأنه كالبخار نوعاً ما ، وأن الأثير الأظف منه ، يكاد يشبه مادة القبة السهوية الزرّاء اللامعة (empyros) وكلمة أثير مشتقة من الفعل « أيثو » (aitho) أى يضيء أو يحرق أو يلهب . ويظهر أن معظم الكون فى رأيه مؤلف من مادتين : إحداهما لطيفة أو خفيفة والأخرى أشد منها لظافة . وأشكال المادة الأخرى نتيجة لتكاثف غير عادى .

(١٥) يروى بلينى الأكبر (I-2) فى «تاريخه الطبيعى» (II, ١٤٩) أن أناكساجوراس

استطاع ، لمعرفته بالفلك ، أن يتنبأ أن صخرة سوف تقع من الشمس بعد عدد من الأيام وكان هبوطها

نهاراً وهذا بالطبع كلام سخيف : ولكن بليز يضيف « أن الحجر لا يزال مشاهداً وأنه بحجم شحنة عربية وأنه أسمر اللون »

(qui lapis etiamnunc ostenditur magnitudine vehis, colore adusto)

وهكذا كان هذا الحجر مشاهداً في أيام بليز (٢٣ - ٧٩) .

(١٦) ليست الرواية مستبعدة ، ولكنها وصلتنا عن طريق شاهد متأخر ، فيثروفوس (١ - ٢ ق . م) في مقدمة الكتاب السابع الذي يبحث في « التزييق الداخلى » من مؤلفه في « فن العمارة » . وينسب « فيثروفوس » مؤلفات رياضية عن قانون الظلال إلى ديمقريطس وأناكساجوراس معاً ، وما يقوله ينطبق على كليهما وينسب اختراع فن التصوير المسرحى إلى « أجاتارخوس » من أبناء جزيرة ساموس (القرن الخامس ق . م) أحد معاصريهما .

H.F. Tozer, *History of Ancient Geography*, Cambridge University Press, 1935, (١٧)
p. 63, app. xi.

(١٨) دعاه الناس « نوس » (العقل) تهماً ، كما يذكر بلوتارك في النص الوارد أعلاه . وهذا ذو مغزى : فإشارات أناكساجوراس إلى « العقل » بدلا من آله المدينة كانت دليلاً كافياً على كفه .

(١٩) هذا ما يقترحه أمتيد في تاريخ الفرس ، A.T. Olmstead *History of Persia*, Chicago ، University of Chicago Press, 1943, p.328

(٢٠) في مقالة إبقراط في الطب القديم (Ancient medicine, I) ، إشارة غريبة إلى مليسوس : « وعندى أن هؤلاء الرجال (الفلاسفة) لضعف إدراكهم يناقضون أنفسهم في أقوالهم عنها ، ويقرون بذلك نظرية مليسوس » (Ton de Melissu logon rthon)

(٢١) تخطر للمرء هنا مقارنات مع الآراء الهندية التي يشار إليها عند استعمال كلمتي « مايا » و « أفيديا » ونكتفى بالإلماع إليها . تعنى مايا : الوهم أو عدم الحقيقة (الباطل) ، و أفيديا : الجهل الروحي أو الجهل إذا رافقه عدم الوجود أو الوهم (الذي يمثل في مايا) ويستعمل البوذيون والهندوس هاتين اللفظتين .

(٢٢) لا داعى للافتراض أن المذهب الذرى خطر لانبادوكليس أو أنه سمع به أصلاً ، فأول الذريين عندنا هو لويكيبوس الذى نسبته عادة إلى أواسط القرن أو ما بعده (راجع ما يلى) .

(٢٣) إن تبلور التفكير الغربى واليونانى حول الأربعة يزداد غرابة إذا قارناه بالنظريات الصينية الطبيعية التى تدور على الخمسة (راجع : Isis 22, 270 (1934-35) ، والنظريات الهندوسية التى تدور على الثلاثة (tridosā) — Isis 34, 174-177 (1942-43) وهذا التصنيف قد يستخدم كأساس لتأويل ثلاثة نماذج ثقافية كبرى : الثلاثية (الهند) والثربيعية (أوروبا وآسيا الإسلامية) ، والخمسية (الشرق الأقصى) .

(٢٤) راجع : A. Pogo, "Egyptian water clocks." — Isis 25, 403-425 (1936), ill. في وحول الساعات المائية البابلية راجع ص ٧٥ . ويروى ديوجنيس اللائرسى (IX, 46) أن بين كتب

(٣٦) وصلنا ثبت مؤلفاته عن طريق «ديوجينيس اللايرسي (٩ - ٤٦)» وهو يشير إلى أن تقسيمها في أربعيات (tetralogies) من صنع رجل يدعى «تراسيلوس» الذي فعل بآثار أفلاطون مثل ذلك (وقد بق هذا التقسيم في أكثر طبعات مؤلفات أفلاطون). ولعل تلك العادة كانت متصلة بتقاليد المسرح الاثيني القديم، فقد كان على الروائي أن يتقدم بأربع مسرحيات في الموسم الواحد: أما أربع مأس أو ثلاث ورواية هزلية satyric.

(٣٧) عقد الصلح مع الفرس سنة ٤٤٩ « كالياس بن هيبيونيكوس » ، راجع :

Olmstead, *Histotry of Persia*, p. 332.

(٣٨) راجع : Armand Delatte, *Les conceptions de l'enthousiasme chez les philosophes présocratiques* (79 pp.; Paris : Les Belles Lettres, 1934);

Joseph Bidez, *Eos* (Brussels : Hayez, 1945), pp. 136 ff (*Isis* 37, 185 (1947))

(٣٩) أثبت هذا المثل وما يتلوه كما ورد في ترجمة : Cyril Bailey, *The Greek atomists and Epicurus*, pp. 187-213 (*Isis* 13, 123, 1929-30)

أورد « بيلي » النص اليوناني أيضاً وطبيعي أن يكون وقعه أفضل من النص الإنجليزي لأن اليوناني هو الأصل بينما الإنجليزي نسخة باهتة .

(٤٠) وهكذا كان معاصراً أسن لأفلاطون الذي تأثر به مع أنه لا يذكره في كتبه أبداً .

J. Bidez *Eos*. P. 134.

(٤١) أرسطو - « المتنازيريق » Metaphysica, 985 B 14 : « هذه الفروق عندهم ثلاثة :

الشكل (schema) الترتيب (taxis) ، الوضع (thesis) . فهم (أى الذريون) يقولون إن الوجود يختلف فقط في السباق (rhythmos) أو التماس (diatige) أو الدوران (trope) . وفي هذه الثلاثة : السياق هو الشكل ، والتماس الترتيب ، والدوران الوضع . لأن (أ) تختلف عن (ن) في الشكل ، (أن) عن (نأ) في الترتيب و ه عن ه في الوضع . أما مشكلة الحركة من أين تلحق الأشياء ، وكيف تلحقها ، فقد أهملها هؤلاء المفكرون تكاسلا ، كسواهم » .

Bailey, *The Greek atomists and Epicurus*, p. 185. (٤٢)

(٤٣) راجع بحث « آرثر كيث » (Arthur Berriedale Keith) المسهب لهذه المسألة في :

Indian logic and atomism. An exposition of the Nyaya and Vaiçesika systems (291 pp.; Oxford, 1921) (*Isis* 4, 535-536 (1921-22)).

(٤٤) نجد لعدد من النظريات اليونانية العلمية والفلسفية مثيلا في الهند . ومن المتع جداً أن نقابل بين هذه الأشكال المتشابهة ، وإن كان يعسر أن نثبت تقدم إحداها على الأخرى أو اعتماد إحداها على الأخرى . وهذا التشابه يساعد على التدليل على وحدة التفكير البشري الأساسية . ولو افترضنا عدداً من المشاكل لا تحتمل إلا عدداً معيناً من الحلول ، فليس من الغريب أن يعثر عليها الحكماء في اليونان والهند أو الصين ، كل بذاته .

(٤٥) وهو يدعى أيضاً « هيرينوس الجبيل » : نحوي روماني عاش في جبيل من أعمال فينيقيا

تاريخ للعلم

في عهد الأباطور ويسباسيانوس (٧٠ - ٧٩) وكتبه مفقودة .

(٤٦) سيراميس ملكة الآشوريين المشهورة في الأساطير ، ولعلها هي سمورامات ، امرأة شمشي أداد الخامس (٨٢٤ - ٨١٢) .

(٤٧) راجع Bailey, *The Greek Atomists & Epicurus* pp. 64-65 George Contenau; راجع *Manuel d'archeologie orientale* (Paris, 1927), vol. 1, pp. 316-319. (*Isis* 20, 474-478 (1933-34). Per Collinder, *Historical origin of atomism* (Lund: Observatory, 1938) (*Isis* 32, 448 (1947-49)).

(٤٨) محاوره جورجياس ، وهي نقد للبيان ، ومحاوره بروتاجوراس (Protagoras) . هي نقد للسوفسطائية . وكلاهما يقيان إلى عهد نضج أفلاطون .

(٤٩) Pierre Maxime Schuhl, *Essai sur la formation de la pensée grecque* (Paris : Presses Universitaires, 1949), p. 368, (*Isis* 41, 227 (1950)).

(٥٠) هذه هي المرة الأولى التي دونها التاريخ لحرق الكتب ، وذلك سنة ٤١١ ، وهي تشير إلى أنه كان في أثينا تجارة رائجة للكتب آنذاك . وتكررت هذه « الجريمة » بعد هذا في بلاد مختلفة ، ويمكن أن نذكر المثلين التاليين : حرق الكتب بأمر الإمبراطور الأول « شيه هوانك تي » (٢ - III ق . م) وفي الطرف الآخر الحريق الذي أمر به هتلر في العاشر من مايو سنة ١٩٣٣ .

(٥١) استغلنا أن نكتب « ولادة النحو » ، لأن النحو اليوناني كان على الأرجح أول نحو ولد واكتمل ، ولعل منافسه الوحيد هو النحو السنسكريتي . ولسنا نعرف تاريخ بداية الوحي النحوي في الهند إلا أن أول نحوي سنسكريتي هو « بانيني » (١ - IV ق . م) الذي عاش قبل قيام أي نحو يوناني . حول نزعة بروتاجوراس النحوية راجع : Gilbert Murray, *Greek Studies*, Oxford Clarendon Press, 1946) pp. 176-178 (*Isis* 38, 3 (1947-48)).

(٥٢) كان أقدم الخطباء المشرقة الوارد ذكرهم في الجدول الاسكندري . وهؤلاء الخطباء حسب الترتيب التاريخي هم أنتيفون (٤٨٠ - ٤١١) ، ليسياس الأثيني (٤٥٩ - ٣٧٨) ، أندوكيدس (٤٤٠ - بعد ٣٩٠) ، ايسوقراط الأثيني (٤٣٦ - ٣٣٨) ، ايسايوس (٤٢٠ - ٣٤٨) ، هيريدس (٤٠٠ - ٣٢٢) ، ليكورجوس الأثيني (٣٩٦ - ٣٢٣) ، ايسخينس (٣٨٩ - ٣١٤) ديموستين (٣٨٥ - ٣٢٢) دينارخوس الكورنثي (٣٦١ - مات متقدماً في السن) ، وبعض هذه التواريخ تقريبية تستغرق أعمارهم مدة قرنين : الخامس والرابع .

(٥٣) لم يكن أنتيفون أول الخطباء ، وأولهم كوراكس الصقلي الذي نبه ذكره في سراقسة بعد نفي الطاغية ثراسيبولوس سنة ٤٦٧ . وقد ألف أول كتاب عن الخطابة دعاه (Techne أو الفن) ويشير إليه أرسطو وشيشرون وكونتيليان .

(٥٤) يوشع لوث ليمان (١٩٠٨ - ١٩٤٨) حبر يهودي أمريكي ألف كتاباً اكتسح الأسواق عنوانه « طمأنينة الفكر » (Peace of mind)

New York, Simon and Schuster, 1946.

(٥٥) *Hocacodaimon Socrates (Clouds, 104)* . وسقراط هو أحد الأشخاص في تلك المسرحية .

Meteorosophistes; (Clouds, 360) (٥٦)

George Sarton, *Portraits of ancient men of science* (Uppsala : Lychnos, 1945), (٥٧)

p. 254.

(٥٨) راجع مقتطفات « فيدون » Phaidon المثبتة فيما بعد .

(٥٩) يمكننا أن نتمتع على المحاورات الأولى فقط . ففي المحاورات اللاحقة يدخل أفلاطون

سقراط كلسان حاله فقط . وكما شرحنا في الفصل السادس عشر كان ذلك خيانة حقيقية .

(٦٠) أكسينوفان: *Memorabilia I, I, 10-17* ترجمة

Edgar Cardew Marchant, Loeb Classical Library (1923), p. 7.

(٦١) إذا أردت أمثلة أخرى فراجع: A.J. Festugière, "Trois rencontres entre la Grèce :

et l'Inde", *Revue de l'histoire des religions* 125, 32-57 (1942)

(٦٢) أفلاطون : *Alcibiades I, 138 c.*

Bidez, *Bos*, p. 122. (٦٣)

Memorabilia, III, XI. (٦٤)

(٦٥) يشرح س. ا. هاياكاوا (S.I. Hayakawa) وجهة النظر الخاصة بعلم المعاني

(semantics) شرحاً بديعاً في كتابه : *Language in action. A guide to accurate thinking, reading,*

and writing (250 pp.; New York: Harcourt Brace, 1941) (*Isis* 34, 84 (1942-43).

ولو عرف سقراط هذا الكتاب لشغف به .

(٦٦) على هامش ذلك ، من الطريف أن نتأمل في عقيدة سقراط في شيطانه (to daimonion)

الذي كان يشير عليه - أو كما قد نقول اليوم الإلهام الإلهي الذي كان يقع إليه ، فكان صاحب

عقيدة ومن المتحمسين لها . وينبغي أن نأخذ كذلك بعين الاعتبار إيمانه بالكهانة (mantice)

الذي كان يشارك فيه عامة القدماء ، إلا أن ذلك قد يخرج بنا عن البحث كثيراً .

(٦٧) كان أنيتوس أهم متهمي سقراط الثلاثة وألد أعداء السوفسطائيين وكان الدور الذي لعبه في

طرد « الطغاة الثلاثين » قد زاد في نفوذه ، ويدعو هوراس سقراط غريم أنيتوس «

"Anyti reus" (*Satirae*, II, IV, 3)

(٦٨) راجع : أفلاطون - دفاع سقراط (٣٠٠ أ) . *Apology of Socrates* (30 A) ترجمة

Harold North Fowler (Loeb Classical Library).

(٦٩) « تياجيس (أو في الحكمة : فن التوليد) ليست من تأليف أفلاطون ، وإنما كتبت

متأخرة نوعاً (حوالي القرن الثاني قبل المسيح) ، إلا أنها وصلت إلى مكتبة الإسكندرية وأدرجت في

أقدم جدول لكتب أفلاطون من تصنيف المنجم تراسيلوس الإسكندري (توفي سنة ٣٦ ميلادية) ،

ومن ثم في عدد من طبعات كتب أفلاطون (استفانوس ، ص ١٢١ - ١٣١ ، لويب Loeb مجلد ٨)

(٧٠) كان الحكم على سقراط في أغلب الظن سياسياً . فلدى انتهاء حرب البيلوبونيز اتهم بتعليم الناس الذين جنحوا عن الديمقراطية وتآمروا مع العدو لكي يقوضوا أركان أثينا . ويكفي أن نذكر أسماء الحكام الخونة : الكيباديس وكريتياس وخارميديس وجميعهم من تلامذته . ويزعم Popper أن سقراط لم يخلف سوى خليفة واحد جدير بالاكبار هو « انتستناس » ، راجع :

K.P. Popper, *The open society*, (London : Routledge, 1945), vol. 1, p. 168, 171.

Sir John Macdonell, *Historical trials* : راجع : محاكمة سقراط . راجع : (Oxford, 1927), pp. 1-18.

(٧١) هل يمكن أن نتصور أن أحداً من الدكاتوريين المحدثين يبدى مثل هذه الشهامة نحو ضحاياه ؟ إنه لا شك فاعل عكس ذلك : « زاجاً بهم في السجن المنفرد (الززانة) وموقماً بهم ضروب العذاب والاستجواب » . وهذا يدل على مدى تقدمنا منذ سنة ٣٩٩ ق . م !

(٧٢) يدور حول محاكمة سقراط وموته أربع محاورات أفلاطونية أوطيفرون (Euthyphron) (في القداسة) ، الدفاع (Apology) (الذود عن سقراط عند محاكمته) . أقريطون (Criton) و « فيدون » . (Phaidon)

(٧٣) ترجمة (Harold North Fowler) مأخوذة من طبعة لويب (Loeb) لكتب أفلاطون ، مجلد ١ ، ص ٣٩٥ - ٤٠٣ .

(استعتت في نقل هذه الفقرة بترجمة زكي نجيب محمود لفيدون - في « محاورات أفلاطون » ، مصر ١٩٤٥ ، ص ٢٩٨ - ٣٠٢ - المترجم) .

(٧٤) تلك الفقرة الأخيرة من « المذكرات ، Memorabilia كما ترد في ص ٣٥٧ من ترجمة . E.C. Marchant (Loeb Classical Library, 1923, p. 347)

(٧٥) يعود الفضل في نشر هذه الملاحظات إلى صديق Dr. Chauncey D. Leake عالم صيدل وعميد كلية الطب ، جامعة تكساس ، Galveston (عن رسالته المؤرخة ٢٢ أكتوبر ١٩٤٥) .

(٧٦) Percy Gardner, *Sculptured tombs of Hellas* (٢٧٨ صفحة و ٣٠ لوحة - لندن ١٨٩٦) . Maxime Colignon, *Les statues funéraires dans l'art grec* . (١٢ صفحة ،

بالرسوم ، باريس ١٩١١) . Alexander Conze, 1831-1914, *Die attischen Grabreliefs* . المجلدان الأولان سهلا القراءة جداً ومليئان بوصف مفصل للمقابر اليونانية عامة . أما مؤلف Conze فهو موسوعة للتواييت اليونانية المنحوتة . ولسد حاجة القارئ يكفي أن يطالع الفصول المتعلقة بالموضوع في كتاب Gardner أو Collignon

(٧٧) ليس كيبس هذا هو مؤلف لوحة بيناكس Tablet Pinax الرامزة إلى الحياة البشرية ، كما كان يعتقد سابقاً ، فقد كتب هذه اللوحة سمي له عاش بعده بزمن طويل وكان مضعاً على تعاليم المشائين والرواقيين والفيثاغوريين . وكان لوسيان الساموسى أول من أشار إلى البييناكس واعتقد أنها قديمة مع أنها على الراجح لم تكن أقدم من زمنه بكثير .

(٧٨) Olmstead, *History of Persia* ص ٤٤٦ .

Ho columenos hypo ton sophiston cosmos, Memorabilia, quoted above (٧٩)

(٨٠) يركز التراث الكنفوشي على الروائع الخمس، (ووتشنغ) والكتب الأربعة، (سوشو). تشير الأرقام الموضوعة بين هلالين في اللائحة التي تلى صفحات «مقدمتي» ، المجلد ٣ ، حيث يجد القارئ ذكر الأشخاص الصينيين وكذلك إشارات إلى صفحات المقدمة حيث يجد المرء معلومات أوفى عن كل منهم). الروائع الخمس هي : ١ . أى تشنغ أو كتاب التغيرات (٢١١٧) - ٢ . شو تشنغ أو كتاب التاريخ (٢١٢٩) ؛ ٣ - شبه تشنغ أو كتاب الشعر (٢١٢٨) ؛ ٤ - لى تشى أو سجل الطقوس (٢١٢١) - ٥ . تشون تشيو أو الربيع والحريف (٢١١٠). أما الكتب الأربعة فهي التالية : ١ . تاهسويه ، العلم الأكبر (٢١٣١) - ٢ . تشونغ يونغ ، نظرية الوسيلة (٢١١٠) - ٣ . لون يو ، مقتطفات الكنفوشية (٢١٢٣) - ٤ . منغ تسو ، منسيوس (٢١٢٣). التاهسويه والشونغ يونغ هي أجزاء من اللى تشى . وقد طبعتا معها في طبعة المجلدات ٢٧ - ٢٨ . *Sacred books of the East*, Legge توجد نشرة صينية - لائينية فرنسية لهذين الكتابين من صنع Oxford 1885 Seraphin Couvreur, *Les quatre livres* (Ho Kien Fou: Mission Catholique, 1910).

(٨١) إن القصة الشعبية التي يركز عليها كتاب أيوب أقدم جداً ، أى إن أيوب قد يكون أقدم بألف سنة من « كتاب أيوب » .

(٨٢) الأديوميون أو الأيديوميون هم سلالة عيسو أو أدوم أخى يعقوب ، وهم قبيلة عبرانية مستقلة رحالة ، وثقافتها أدنى مستوى من الاسرائيليين ، وأرض أدوم جنوب البحر الميت .

(٨٣) ثمة أيوب « بابلي » - راجع عنه *Cuneiform* Robert William Rogers (1864-1930) *parallels to the Old Testament* (New York, 1912), pp. 164-169.

(٨٤) في دراستي له استعنت كثيراً بكتاب : Robert H. Pfeiffer, *Introduction to the Old Testament* (New York : Harper, 1941), pp. 660-707 (*Isis* 34, 38 (1942-42)).

وهو تحليل واف يشتمل على ثبت كامل بالمراجع .

(٨٥) يعالج Pfeiffer هذه القضية في استقصاء (ص ٦٦٧ - ٦٧٥) . يحتوي كتاب أيوب على بعض المتناقضات التي قد تكون ناجمة عن التشويش في الترتيب أو الحذف أو دمج فصول مزيفة . مثلاً يميل انقاد المحدثون إلى اعتبار القصيدة الرائمة في الحكمة الإلهية (فصل ٢٨ : ٤٢) من هذا النوع . وليس في وسعنا أن نتمتع في هذا وينبغي أن نأخذ الكتاب على علاقته مفترضين صحته كاملاً .

(٨٦) لا أعرف العبرانية جيداً بحيث أتمكن من تذوق الأسلوب الأصلي ، لذلك أبني أحكامي على الترجمات الإنجليزية . تأمل عبارات كهذه «أما أنا فقد علمت أن وليي حتى (١٩:٢٥) ولا يرى هذب الصبح (٩ : ٣) ، «عندما زمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بني الله (٧ : ٣٨) . يستعمل المؤلف أغني مجموعة مفردات نجدها عند أى مؤلف عبراني آخر ، فيكون بحكم ذلك كما يقول بنايفر (Pfeiffer) شكسبير العهد القديم . ولم يتوافر لأى شاعر من شعراء العهد القديم مثل إساعته لجمال الطبيعة .